

فرصتي الثانية

— تأليف منصف الوسلاطي —

— بين عالمين ..
— قصة لا تنتهي —



الفصل الأول: فتي الرماد

كان الجنوب آخر الأماكن التي يفكر المرء في زيارتها إذا كان يبحث عن الحياة. هناك، حيث تمتد الأراضي القاحلة تحت سماء شاحبة، كانت القرى تتناثر بين التلال كأنها بقايا أحلم قديمة نسيها أصحابها. وكان الناس يقولون إن الرياح في الجنوب تحمل رائحة الرمل وحده، لكن تلك الليلة كانت تحمل شيئاً آخر. رماداً. كانت القرية قد ماتت. لم يبق من بيوتها سوى جدران سوداء متصدعة، وال من أبوابها سوى ألواح متناثرة بين الحجارة. الأشجار التي كانت تمنح أهلها الظل تحولت إلى أعمدة محترقة، والأرض التي شهدت يوماً لعب الأطفال صارت مغطاة بطبقة من الرماد. لم يكن هناك صوت. ال صراخ. ال بكاء. حتى الريح بدت وكأنها تخشى أن توقف الموتى.

كان الملك ماركوس عائداً من جولته في الجنوب عندما مر بالقرب من المكان. لم يكن ينوي التوقف. كان الليل قد بدأ يهبط، وفرسانه يحثون الخيول على الإسراع قبل أن تبتلعهم ظلمة الصحراء. ثم سمع صوتاً. ضعيفاً. متقطعاً. كأنه آخر خيط بين الحياة والموت. رفع الملك يده، فتوقفت القافلة. التفت الفرسان حولهم. قال أحدهم:

— سيدي؟

لم يجب ماركوس. كان يصغي. ثم سمعها مرة أخرى. بكاء طفل. ترجل الملك عن حصانه، وسار بين الأنقاض. لم يكن الصوت يأتي من بيت، فقد لم يبق بيت. لأصلاً كان يأتي من بين كومة من الحجارة والخشب المحترق، حيث وجد شيئاً صغيراً ملفوفاً بقطعة قماش رمادية. اقترب. توقفت خطواته. كان لطفاً رضيعاً. وحيداً. ال يتجاوز عمره بضعة أشهر. كان وجهه مغطى بالغبار، وعلى جبينه خدش صغير، لكنه

كان حياً. قبضته الصغيرة كانت مشدودة حول طرف القماش، وكأنه يتمسك بآخر شيء بقي له من عالم لم يعد موجوداً. حمله ماركوس بين ذراعيه. سكت الطفل. فتح عينيه. عينان صافيتان، تنظران إلى الرجل الذي حمله وكأنهما تسألانه لسوأل لم يكن الملك يعرف إجابته.

من أنت؟ وأين أخذت عالمي؟

ظل ماركوس صامتاً لحظات. ثم نظر إلى القرية المحترقة خلفه. كان قد رأى الحروب. رأى المدن تسقط، والجنود يموتون، والملوك يوقعون على أوامر ال يعرفون كم أمّا ستبكي بسببها. لكن رؤية طفل وحيد وسط قرية ميتة كانت مختلفة. مد إصبعه، فقبض الطفل عليه. تنفس الملك ببطء. وقال:

— لن أتركك هنا.

كانت تلك الكلمات بسيطة. لكنها كانت أول وعد في حياة لوسين.

حين عاد الملك إلى القصر، كانت الملكة إليانا تنتظره. كانت تقف عند أعلى الدرج، وإلى جوارها طفلها؛ الأمير أدريان والأميرة إيالرا. كانا في العمر نفسه تقريباً، ال يزالان في تلك المرحلة التي ال يعرف فيها الطفل الفرق بين أمير وأميرته، وبين قصر وحديقة، وبين العالم كله ولعبة صغيرة. لكن عيني الملكة تغيرتا حين رأت الطفل بين ذراعي زوجها. اقتربت ببطء.

— .ماركوس.. من هذا؟

نظر إليها الملك. ثم إلى الطفل.

— وجدته في الجنوب.

لم تسأل عن والديه. ربما كانت تعرف الإجابة من نظرة زوجها. مدت ذراعيها. ناولها الملك الطفل. وحين حملته، فتح لوسين عينيه مرة أخرى. ابتسمت. ابتسامة صغيرة، حزينة، لكنها دافئة.

— يبدو أنه لم يعد لديه أحد.

اقتربت إيالرا. كانت طفلة صغيرة بشعر طويل ومالح هادئة، أمسكت بثوب أمها ونظرت إلى الرضيع بفضول.

— هل سيبقى معنا؟

نظر الملك إليها.

— إن أراد هللا ذلك.

قالت بال تردد:

— أنا أريده أن يبقى.

ضحك أدريان.

— لكنه ال يستطيع اللعب.

نظرت إليه أخته باستنكار.

— ألنه صغير.

ثم اقتربت من الطفل ومدت إصبعها نحوه. قبض لوسين على إصبعها. توقفت إيالرا. ثم ضحكت. ضحكة صافية ارتفعت في القاعة الواسعة، وبددت للحظة شيئاً من الحزن الذي جاء به الملك من الجنوب. نظر ماركوس إلى المشهد. زوجته تحمل لطفاً لم يعرف اسمه بعد. ابنه يقف بجوارها متذمراً ألنه وجد منافساً جديداً للعب. وابنته تضحك ألن يداً صغيرة أمسكت بإصبعها. كان المشهد بسيطاً. بسيطاً إلى درجة أن الملك لم يدرك حينها أنه كان ينظر إلى بداية قصة ستغير مستقبل مملكته.

قالت الملكة:

— وما اسمه؟

نظر الملك إلى السماء من خلال النافذة. لم يكن يعرف لماذا جاء السم إلى ذهنه.
— لوسين.

ومنذ تلك الليلة، صار للطفل الذي وُلد بين الرماد بيت. وصارت له عائلة. وصار له اسم. لكن لم يعد له ماضٍ.

مرت السنوات. كبر لوسين داخل القصر كما تكبر شجرة غُرس في أرض لم تعرفها جذورها الأولى. لم يكن أحد يعامله كخادم. وال كضيف. وال كغريب. كان فرداً من العائلة. كان يأكل معهم. يتعلم معهم. ويلعب مع الأمير والأميرة في حدائق القصر. كان أدريان وإيالرا يناديانه باسمه دون ألقاب، وكان لوسين يفعل الشيء نفسه.

لكن الملك كان يرى شيئاً لم يره الآخرون. حين بلغ لوسين السادسة، لاحظ أن الطفل يستطيع الركض أسرع من أقرانه. في الثامنة، كان يتسلق جدران الحديقة التي كان الحراس يحتاجون إلى السالم للوصول إلى أعاليها. وفي العاشرة، كان يستطيع حمل سيف التدريب لفترة أطول من معظم الأطفال الذين يكبرونه بعامين أو ثلاثة. لم يكن الأمر مجرد قوة. كان هناك شيء في جسده. سرعة استجابة غريبة. توازن طبيعي. وقدرة على تحمل الألم ال تناسب عمره.

وذات صباح، شاهد الملك لوسين يتدرب مع الأمير أدريان. كان التدريب بسيطاً. سيفان خشبيان. مساحة صغيرة من الرمل. وقواعد واضحة. لكن بعد دقائق قليلة كان أدريان يلهث، بينما ظل لوسين واقفاً. رفع المدرب حاجبه.
— مرة أخرى.

هجم أدريان. صد لوسين الضربة. ثم أخرى. ثم ثالثة. وفي اللحظة التي اندفع فيها الأمير إلى الأمام، انحرف لوسين جانباً، وأدار جسده، فسقط أدريان على الرمل. ساد الصمت. نظر لوسين إلى يده. ثم إلى صديقه. مد يده إليه.

— هل أنت بخير؟

أمسك أدريان يده ونهض. لكن الملك لم ينظر إلى ابنه. كان ينظر إلى لوسين. وفي عينيه ظهر شيء لم يكن موجوداً من قبل. توقع. قال الحقاً لقائد حرسه:

— ذلك الفتى سيصبح فارساً عظيماً.

سأله القائد:

— فارساً؟

ابتسم ماركوس.

— إن استمر على هذا النحو، فقد يصبح أكثر من ذلك.

توقف ل قليلاً.

— ربما قائداً للجيش يوماً ما.

لكن الملك لم يكن يعلم أن الجملة التي قالها كمديح ستصبح بالنسبة إلى لوسين عبئاً يطارده لسنوات.

بدأ التدريب الحقيقي. في البداية كان لوسين يظنه لعبة. ثم أدرك أنها لم تكن كذلك. كان يستيقظ قبل شروق الشمس. يركض حتى تحترق رثاه. يتدرب على السيف حتى ترتجف أصابعه. يتعلم ركوب الخيل، قراءة الخرائط، معرفة التضاريس، الحساب، تاريخ الممالك، فنون الحرب، أساليب القتال، وحتى كيفية قيادة مجموعة من الجنود. لم يكن الأمير أدريان يفعل شيئاً من ذلك. وال إيالرا. وال أطفال النبلاء. كانوا يستيقظون متأخرين. يدرسون ما يحتاجون إليه. يمضون أيامهم بين القاعات والحدائق والختفالت. أما لوسين فكان يرى الشمس أكثر مما يرى سقف غرفته. كان يعود في المساء متعباً إلى درجة أنه بالكاد يستطيع رفع يده. وفي بعض الليالي كان يجلس وحيداً أمام نافذته. ينظر إلى القصر. ثم يتساءل:

لماذا أنا؟ لماذا يجب أن أركض أكثر؟ لماذا يجب أن أتعلم أكثر؟ لماذا يجب أن أصبح أقوى؟

كان الملك يقول له دائماً:

— ألن لديك موهبة.

لكن الموهبة لم تكن جواباً كافياً لطفل. كان لوسين يريد أن يعرف شيئاً آخر. هل كان الملك يحبه؟ أم كان يحبه لأنه وجد فيه سالحاً جيداً؟ لم يكن يعرف. وهذا الجهل كان أقصى من التدريب.

في إحدى الليالي، عاد لوسين إلى غرفته ووجد إيالرا جالسة على الأرض أمام الباب. كانت تحمل طبقاً صغيراً. قالت:

— تأخرت.

نظر إليها متعباً.

— التدريب طال.

— أعرف.

رفعت الطبق.

— لذلك أحضرت لك الطعام.

جلس بجانبها.

— أنت ال تفعلين هذا ألدريان.

— أدریان ال يتدرب حتى يفقد القدرة على المشي.

ابتسم لوسين.

— صحيح.

- دفعت الطبق نحوه.
- كل.
- بدأ يأكل. راقبته إيالرا للحظات، ثم قالت:
- هل تكره التدريب؟
- توقف. فكر.
- أحياناً.
- إذن توقف.
- رفع عينيه إليها. ضحكت.
- ماذا؟
- لو توقفت، سيغضب الملك.
- فليغضب.
- وسيقول إنني ضعيف.
- صمتت. ثم قالت بهدوء:
- أنت لست ضعيفاً.
- نظر إليها.
- كيف تعرفين؟
- أشارت إلى يديه. كانت أصابعه مليئة بالخدوش.
- ألن الضعيف ال يصل إلى هنا.
- ثم أشارت إلى قلبه.

— وألنك ما زلت تبتسم.

لم يعرف لوسين ماذا يقول. كانت إيالرا تفعل شيئاً غريباً معه. حين يكون العالم كله ، لثقياً كانت تجعل الأشياء أخف. وحين يبدأ الشك في داخله، كانت تنظر إليه وكأنها ال ترى أي شيء يستحق الشك. مرت السنوات، وتغيرت طفولتهما إلى مراهقة دون أن يلاحظا. في السادسة عشرة، لم تعد إيالرا تلك الطفلة التي كانت تمسك إصبعه في القاعة. ولم يعد لوسين الطفل الذي وجدوه في الجنوب. كان أطول، أكثر قوة، ووجهه يحمل مالمح شاب بدأ يعرف قسوة العالم. أما إيالرا، فقد أصبحت أميرة يعرف الجميع أنها ستكون يوماً ملكة.

ومع ذلك، حين يكونان وحدهما، كان كل شيء يعود كما كان. يجلسان قرب البحيرة. تسأله عن تدريبه. ويخبرها عن أخطائه. تضحك حين يخبرها أن المدرب ضربه بالعصا لأنه شرد للحظة. وأحياناً، كانت تصمت فقط. وتنظر إليه. كان لوسين يعرف تلك النظرات. لكنه لم يكن يملك الشجاعة لينحها اسماً. أنه كان يعرف الفرق بينه وبينها. هي أميرة. وهو طفل وجدوه بين الرماد. قد يصبح أفضل فارس في المملكة. قد يحمل راية الجيش. قد يحمي القصر كله. لكن هل يمكن لفارس أن يصبح شيئاً أكثر من حارس للأميرة؟ كان هذا السؤال يطارده. ولذلك استمر. كل ضربة. كل جرح. كل صباح بارد. كل ليلة نام فيها وعضائته تؤلمه. كان يتحملها أنه كان يحمل حلاً صغيراً ال يخبر به أحداً. أن يصبح يوماً الرجل الذي يقف إلى جوار إيالرا. ليس خلفها. وليس بعيداً عنها. بل إلى جانبها. وإذا كان عليه أن يقضي حياته كلها ليصبح جديراً بذلك، فسيفعل.

لكن القصر لم يكن خالياً من العيون. في أحد الأروقة، كان الأمير أدريان يقف وحده. كان قد رأى إيالرا تغادر الحديقة قبل دقائق. ورأى لوسين يبقى خلفها. لم يكن يعرف ما الذي يحدث بينهما. وربما لم يكن يريد أن يعرف. كان يرى كيف ينظر لوسين إلى أخته. ويرى كيف تغير وجهها حين يكون بالقرب منها. كان هناك شيء يتحرك في الظلال. شيء ال يتحدث عنه أحد. اقترب منه أحد الحراس.

— سمو الأمير؟

لم يجب أدريان فوراً. كان ينظر إلى المكان الذي اختفى فيه لوسين. ثم قال:

— هل تعرف أين ذهب؟

— ال، سموك.

ظل صامتاً. ثم ابتعد. لم يكن الغضب واضحاً في وجهه. ولم يكن الغيرة واضحة تماماً. لكن شيئاً ما كان ينمو في داخله. شيئاً لم يكن يعرف كيف يسميه. وفي القصر، كانت هناك أشياء كثيرة ال تُقال. أسرار عن طفل جاء من قرية مدمرة. أسرار عن سبب نجا ذلك الطفل. وأسرار عن سبب اختيار الملك له دون سائر الناجين. أما لوسين، فلم يكن يعرف شيئاً من ذلك. كان يظن أن حياته بدأت يوم حمله الملك بين ذراعيه. ولم يكن يعلم أن حياته الحقيقية ربما بدأت قبل تلك اللحظة بسنوات. في مكان ما من الجنوب. تحت رماد قرية لم يبق منها شيء. وفي ليلة بعيدة، قبل أن يعرف معنى اسمه، كان هناك من يبحث عنه. وكان هناك من أراد موته. وكان هناك من عرف منذ البداية. أن ذلك الطفل لن يكون فارساً عادياً. بل شيئاً أكبر بكثير.

الفصل الثاني: فارس الزمن

كان الصباح في الأكاديمية الملكية يبدأ قبل أن تستيقظ الشمس تماماً. تتسلل خيوط الضوء الأولى من خلف الجبال، فتنعكس على أبراج القصر البعيدة، بينما كانت ساحة التدريب تضج بأصوات الحديد والخشب وصيحات المدربين. رائحة التراب المبتل تختلط برائحة العرق والجلد، وصفير السيوف الخشبية وهي تشق الهواء يتردد بين الجدران الحجرية.

في إحدى الحلبات، كان لوسين يقف وسط مجموعة من الفتيان. كانوا جميعاً في مثل سنه تقريباً، يرتدون ملابس التدريب الخفيفة، وقد غطى العرق وجوههم.

— مجدداً!

صرخ المدرب.

انطلق الجميع. اندفعت الأقدام فوق الرمل، وارتفعت السيوف الخشبية في الهواء. كان التدريب اليوم مخصصاً للحركات الأساسية: التقديم، التراجع، المراوغة، والضرب من الزوايا المختلفة.

أما لوسين، فكان يتحرك بهدوء غريب. لم يكن الأسرع دائماً، لكنه كان يرى الحركة قبل حدوثها. تقدم أحد المتدربين نحوه وضرب من اليمين. مال لوسين. لقليلاً مرت الضربة بجانب وجهه. ثم لمس كتف الفتى بطرف سيفه.

— مت.

تجمد الفتى.

— ماذا؟

ابتسم لوسين.

— لو كان السيف حقيقياً.

— أنت مزعج.

— أعرف.

وقبل أن يرد عليه، جاء صوت المدرب:

— !لوسين ال تحدث أثناء التدريب!

— هو الذي بدأ.

— ال يهمني!

رفع لوسين يديه باستسلام. كان الصباح يسير كأني صباح آخر. حتى جاء أحد الفتيان راكضاً من الجهة الأخرى لألكاديمية. كان يرتدي زي قسم السحر، وشعره منكوش، وأنفاسه متقطعة كأنه فرّ من وحش. دخل الساحة دون إذن، وصرخ:

— !شباب شباب!

توقفت السيوف. التفت الجميع إليه.

قال أحد المدرسين بغضب:

— كيف تجرؤ على مقاطعة التدريب؟

انحنى الفتى وهو يلهث.

— .فارس.. فارس الزمن!

ساد الصمت. ثم قال:

— ظهر!

لم يحتاج إلى قول المزيد. انفجرت الساحة.

— ماذا؟!

— فارس الزمن؟!

— أين؟!

— هل هو هنا؟!

— مستحيل!

وفي لحظات، تحولت الأكاديمية الملكية إلى ما يشبه خلية نحل ضربها البرق. ترك المتدربون أسلحتهم، واندفعوا نحو الساحة الكبرى. حتى بعض المدربين وجدوا أنفسهم يركضون معهم. أما لوسين فحذر للحظة في الفوضى. ثم قال:

— يا لها من أكاديمية عظيمة...

وركض خلفهم.

كانت الساحة الكبرى مكتظة بالبشر. طالب من مختلف الأقسام، أساتذة، حراس، وحتى بعض العاملين في القصر تجمعوا حول المكان. كل شخص يريد أن يرى الرجل الذي لم يكن ظهوره يحدث إلّا نادراً. وفي وسط الزحام، وجد لوسين مكاناً جيداً. لكن أحدهم كان واقفاً أمامه. نظر إليه. ثم إلى المكان الذي يحتله. ثم قال:

— تنحّ.

— ماذا؟!

أمسكه لوسين من شعره وسحبته إلى الخلف.

— آي ماذا تفعل؟!

أخذ لوسين مكانه بهدوء.

— أشاهد.

— هذا مكاني!

— كان.

تركه الفتى يشتكي خلفه، بينما رفع لوسين عينيه إلى الساحة. ..وهناك.. رآه. توقفت أنفاسه للحظة. رجل يقف إلى جانب الملك. كان يرتدي درعاً أسود قائماً، تزيينه نقوش بيضاء دقيقة تمتد على صدره وكتفيه، بينما غطت خوذة كاملة رأسه، فلم يظهر من وجهه شيء. وعلى ظهره كان رمح طويل. لم يكن بحاجة إلى أن يقدم نفسه. الجميع يعرفه. فارس الزمن. بطل الحكايات التي كان لوسين يسمعها في طفولته. الرجل الذي ظهر في أعظم كوارث التاريخ، وقاتل في أماكن لم يعد أحد يعرف موقعها، ثم اختفى دون أن يترك خلفه سوى الأساطير. كان بالنسبة إلى لوسين أكثر من شخصية تاريخية. كان البطل الذي جعله يمسك أول عصا خشبية في حياته ويتخيل نفسه فارساً. وكانت تلك اللحظة أشبه بأن تتحول إحدى صفحات كتاب طفولته إلى حقيقة أمام عينيه. وصل آرثر أخيراً بجانبه، يلهث. كان زميله في تخصص الفروسية وصديقه الأقرب. همس:

— بس.. بس، أسمع.

— ماذا؟

— ما حكايته؟ لماذا الجميع متحمس هكذا؟

التفت إليه لوسين ببطء. ثم صفعه في مؤخرة رقبته.

— أيها الجهل! اللعين أأل تعرف حارس الزمن؟

فرك آرثر رقبته.

— كان بإمكانك الشرح دون قتلي.

— اسمع فقط. فارس الزمن شخصية تاريخية. ظهر اسمه منذ حادثة مملكة الظلال.

- اتسعت عينا آرثر.
- ألم تحصل تلك الكارثة منذ ألفي سنة؟
- نعم.
- وأنت تتحدث عنه وكأنه جاركم القديم.
- أعرف أن ذلك غريب. وهذا المريب فيه أيضاً.
- خفض لوسين صوته.
- لو كنت ببعض الدراسات، كما قال الأستاذ، فستلاحظ شيئاً غريباً. كل من رأى فارس الزمن يقاتل عن قرب يصف الشيء نفسه.
- ماذا؟
- الأسلوب القتالي نفسه. نفس الحركات. نفس طريقة استخدام. الريح.. وحتى السحر الهوائي.
- رفع آرثر حاجبيه.
- هاه؟ هو ساحر هواء؟ لم أعتقد أن الملك يقبل بالسحر.
- نظر إليه لوسين كأنه سمع أكثر جملة سخيفة في حياته.
- فارس الزمن عمك.
- ماذا؟
- وعم الجميع.
- لوسين، أنت تخيفني عندما تتحدث بهذه الثقة.
- لا تهتم. الأمر معقد.

وقبل أن يكل، غمز آرثر له.

— انظر.

— إلى ماذا؟

— الملك والناظر وفارس .الزمن .. ينظرون إليك.

تجمد لوسين.

— ماذا؟

التفت ببطء. كان آرثر محققاً. الملك ينظر إليه. الناظر ينظر إليه. وفارس .الزمن .. ينظر إليه أيضاً. شعر لوسين بأن الألوان انسحبت من وجهه.

— لماذا ينظرون إليّ؟

— ال أعرف.

— ال تساعدني إذن.

ثم حدث شيء لم يتوقعه. رفع فارس الزمن يده إلى خوذته. وانطفأ الضوء الذي كان يضيء داخلها. للحظة، لم ير لوسين سوى الظالم. ثم ظهرت العينان. عينان خضراوان. اتسعت عينا لوسين. شعر بشيء دافئ يمال صدره. سعادة صافية، بسيطة، ال تحتاج إلى تفسير. بطل طفولته كان أمامه. وبينما ظل لوسين يحدق، قال الملك:

— أثار هذا الفتى اهتمامك؟

ساد الصمت.

أجاب فارس الزمن بصوت هادئ:

— إنه ابنك؟

ابتسم الملك.

— ابني بالتبني. فارس ذو موهبة نادرة.

صمت فارس الزمن لحظة. ثم ابتسم تحت خوذته.

— أرى ذلك بوضوح.

عاد الصمت. ثم قال:

— على أي حال، هذه المعلومات هي كل ما أستطيع أن أمدك به في الوقت الحالي. استغلها جيداً، يا جاللة الملك.

ابتسم الملك.

— حسناً. ولكن الـتخلف لعشرين سنة أخرى.

لم يجب فارس الزمن. وفجأة، انفجر حوله ضياء أبيض. رفع الجميع أذرعهم أمام وجوههم. وفي اللحظة التالية.. اختفى. بقيت الساحة غارقة في الصمت. ثم بدأ الجميع يتحدثون في وقت واحد. أما لوسين، فظل واقفاً مكانه. كان يبتسم.

في الليل، كان القصر هادئاً.

طبعاً، سأحافظ على المشهد كما هو تقريباً، وأجعل الرسم أكثر لتفصيلاً بحيث تكون العينان الخضراوان جزءاً مقصوداً من رسم لوسين، وهذا هو ما يجعل إيالرا تشعر بالغيرة اللطيفة لأنها لم تر فارس الزمن عن قرب مثله.

في الليل، كان القصر هادئاً.

كانت السماء مغطاة بالنجوم، والقمر يسكب ضوءه الفضي على شرفة القصر، حتى بدا كل شيء ساكناً كأنه لوحة معلقة في ظالم واسع.

جلس لوسين مع إيالرا حول طاولة صغيرة. أمامهما إبريق شاي وطبق من البسكويت، وكانت الأميرة ترتشف بهدوء، بينما كان لوسين غارقاً في ورقة أمامه،

يمسك قلباً بين أصابعه ويضيف لمسته الأخيرة إلى الرسم.

راقبته إيالرا للحظات.

— ماذا ترسم؟

لم يجب.

اقتربت منه لقليلاً.

— لوسين؟

— لحظة.

نظرت إلى الساعة المعلقة على الجدار.

— لقد قلت ذلك قبل خمس دقائق.

— التفاصيل تحتاج وقتاً.

رفعت حاجباً.

— منذ متى وأنت تعرف الرسم؟

أجاب بكل جدية:

— منذ اليوم.

ضحكت إيالرا. ثم مدت يدها وانتزعت الورقة من أمامه.

— أعطني!

— إيالرا!!

رفعتها أمام عينيها. كان فارس الزمن مرسوماً عليها. الدرع الأسود بدا واضحاً بكل تفاصيله، والنقوش البيضاء التي تزينه مرسومة بعناية، والرمح الطويل على ظهره،

وحتي الخوذة التي أخفت معظم وجهه. لكن أكثر ما أوقف إيالرا لم يكن الدرع والرمح. بل العينان. كان لوسين قد رسمهما بدقة شديدة، بلون أخضر واضح، وحاول أن ينقل حتى النظرة الهادئة التي لمحها للحظة عندما أطفأ فارس الزمن نور خوذته. حدقت إيالرا في الرسم. ثم رفعت عينيها إلى لوسين.

— أنت رسمت عينيه أيضاً؟

— بالطبع.

— بهذه الدقة؟

أخذ لوسين الورقة منها وأشار إلى العينين.

— انظري. كان لونهما أخضر. لم أكن أخطئ في ذلك.

ابتسم بفخر واضح.

— حتى أنني تذكرت شكل الدرع والنقوش الموجودة عليه.

نظرت إيالرا إلى الرسم مرة أخرى. ثم تنهدت.

— يا لك من محظوظ.

رفع لوسين حاجبه.

— محظوظ؟

— نعم.

ثم أخذت قطعة بسكويت، وقالت بنبرة تحمل شيئاً من الغيرة الطفولية:

— أنا أحسدك بصراحة.

ضحك لوسين.

— على ماذا؟

الفصل الثالث: بين السيف و العقل

كان صباح اليوم التالي أكثر هدوءاً من المعتاد.

جلست مجموعة المتدربين في قاعة الاستراتيجيات الحربية، حيث امتدت أمامهم خرائط كبيرة مرسومة على أوراق سمكية، تتناثر فوقها علامات خشبية صغيرة تمثل الجنود والفرسان ومواقع التحصينات.

كانت القاعة مستطيلة، جدرانها مغطاة بخرائط قديمة، وعلى الجدار الأمامي لوحة سوداء كبيرة امتألت بالرسوم والخطوط منذ بداية الدرس. وقف الأستاذ أمامها، ممسكاً بقطعة طبشور.

— في الحرب، القوة وحدها ال تكفي. الجيش الذي يملك العدد الأكبر قد يخسر أمام جيش أصغر إذاً

أ جبر على القتال في المكان الخطأ، وفي الوقت الخطأ.

كان لوسين يصغي باهتمام. عيناه تنتقلان بين الخريطة والقطع الخشبية أمام الأستاذ. أما آرثر، الذي كان يجلس إلى جواره، فقد بدا وكأن الكلمات تمر من أذنه اليمنى لتخرج من اليسرى دون أن تترك أثراً. ظل الأستاذ يشرح توزيع القوات، بينما كان لوسين يكتب بعض الملاحظات. ونجأة، همزه آرثر برفقه. التفت لوسين.

— ماذا؟

اقترب آرثر منه وهمس:

— أسمع.

— ماذا؟

— متى ستعترف بحبك للأميرة إيالرا؟

- توقفت يد لوسين فوق الورقة. نظر إليه بطرف عينه.
- هل جنت؟
- سؤال طبيعي.
- ال، ليس طبيعياً.
- بالنسبة إلي طبيعي جداً.
- خفض لوسين صوته.
- ال أعرف بصراحة. الموضوع خطأ بشكل كبير.
- خطأ؟
- هي الأميرة وأنا...
- توقف لحظة.
- أنا أنا.
- رفع آرثر حاجبه.
- تفسير عبقرى.
- تنهد لوسين.
- أخاف أن يكتشف الملك الأمر ويجلدني على بكرة أبي.
- لن يفعل.
- وأخاف أن تكون إيالرا تعرف بالفعل.
- ابتسم آرثر بثقة مصطنعة.
- لا تخف. عمالي المندسون يؤكدون لي أنها ال تعلم.

- حدق لوسين فيه.
- عمالؤك المندسون؟
- ال تسأل عن مصادر استخباراتي.
- ليس لديك مصادر استخباراتية.
- لدي.
- من؟
- خادم المطبخ.
- كاد لوسين يضحك.
- أنت أحمق.
- أحمق، نعم. لكنني أحمق يعرف متى تكون الفتاة معجبة بشخص.
- ثم مال نحوه وقال:
- وبصراحة، ال أعتقد أن الملك سيجد أحداً أكفأً ألميرته سواك.
- تردد لوسين.
- ال تجعل الأمر يبدو بهذه السهولة.
- أنا فقط أقول الحقيقة.
- ثم ابتسم آرثر ابتسامة ماكرة.
- على الرغم من أنني أتمنى، يا ذنوبي، أن يقبل بك الأمير أدريان لأصاً.
- لم يكذبني. جملة.. حتى التفت الأستاذ. وفي حركة خاطفة، رمى قطعة الطيشور.
- انطلقت في الهواء كالسهم. لم ير آرثر سوى نقطة بيضاء تقترب من وجهه.

— ماذا...؟

لكن قبل أن تصيب عينه، امتدت يد لوسين. أمسك قطعة الطباشور بين إصبعين. توقفت على بعد شعرة من عين آرثر. تجمد آرثر في مكانه. تسلفت قطرة عرق باردة من صدغه، ثم تبعها أخرى. ظل جسده متيبساً، وكتفاه مرفوعين، وعينه تحقدان في قطعة الطباشور التي كادت تدخل في تاريخه الطبي إلى الأبد.

قال لوسين بهدوء:

— أنت بخير؟

بلغ آرثر ريقه.

— أظن أن روحي خرجت من جسدي وعادت للتو.

تعالت ضحكات بعض الطالب. أما الأستاذ فقال:

— ردة فعل جيدة يا لوسين.

وضع لوسين قطعة الطباشور على الطاولة.

— شكراً، أستاذي.

— وما دمت مركزاً إلى هذا الحد...

أشار إلى اللوحة.

— فلتجب عن هذا السؤال.

ساد الهدوء. رسم الأستاذ خريطة جديدة. جيش عدو قوامه أكبر من جيشك بنحو الثلث، يتركز في سهل مفتوح أمام مدينة محصنة. قواتك أقل عدداً، لكن لديك حصن خلفك، وتضاريس مرتفعة على جانبي السهل، وقوة فرسان تستطيع التحرك بسرعة. قال:

— العدو يريد إجبارك على التراجع إلى المدينة قبل أن يصل إليه جيش إمداد بعد يومين. لديك يوم واحد فقط لتعطيل تقدمه. إذا

هاجمته مباشرة ستخسر بسبب تفوقه العددي. ماذا تفعل؟

نظر لوسين إلى الخريطة. لم يجب فوراً. اقترب من اللوحة. كان أمامه خط طويل يمثل جيش العدو، وفي الوسط أرض مفتوحة، بينما كانت المرتفعات على الجانبين تضيقان تدريجياً كلما اقتربتا من المدينة. أخذ قطعة خشبية.

— لن أقاتله هنا.

وضعها خلف خط العدو.

— سأجعله يعتقد أنني أقاتله هنا.

رفع الأستاذ حاجبه. تابع لوسين:

— أقسم قواني إلى ثلاثة أجزاء. المركز يكون أضعف من الجناحين، وأعطي العدو انطباعاً بأنني أريد الدفاع عن الطريق المؤدي

إلى المدينة.

حرك القطع.

— عندما يبدأ بالضغط، يتراجع المركز ببطء، ال هروباً، بل تراجعاً محسوباً. سيظن أن خطوطنا تنهار، فيدفع مزيداً من رجاله إلى

الأمام للحاق بنا.

أشار إلى الجناحين.

— في الوقت نفسه، أبقى المشاة الأقوى هنا وهنا، خارج مدى نظره قدر الإمكان.

ثم أخذ قطع الفرسان.

— أما الفرسان فال أرسلهم إلى قلب المعركة. أجعلهم يلتفون خلف الجناحين، ويهاجمون مؤخرة الجيش عندما يندفع مركزه إلى الأمام.

قال أحد الطالب:

— لكنه سيكتشف الخطة.

هز لوسين رأسه.

— إذا اكتشفها مبكراً، نعم.

ثم أشار إلى المرتفعات.

— لذلك لن تكون المهمة الأولى للفرسان هي الهجوم. سيقطعون طرق الإمداد ويهاجمون رسل العدو، ثم يظهرون من الخلف

للحظات ويختفون. أريد أن يشعر قائدهم أن خطوته الخلفية مهددة.

صمت . ل قليلاً ثم وضع آخر قطعة.

— عندما يصبح مركز جيشه متقدماً عن جناحيه، وتتكدس قواته في المساحة الضيقة بين المرتفعات، أتوقف عن التراجع.

ثم أغلق يده المسافة بين القطع.

— هنا تبدأ المعركة الحقيقية.

تحرك الجناحان إلى الداخل.

— تضغط الجناحان عليه من الجانبين، بينما يثبت المركز مكانه، وتغلق الفرسان الطريق خلفه.

نظر إلى الأستاذ.

— لن أحتاج إلى تدمير جيشه بالكامل. أحتاج فقط إلى جعله عاجزاً عن التقدم ليوم واحد.

ساد الصمت. حتى آرثر، الذي كان قبل دقائق يوشك على فقدان عينه بسبب قطعة طبشور، كان ينظر إليه بفم مفتوح. تأمل الأستاذ الخريطة . لطوياً ثم ابتسم.

— أنت لم تبحث عن طريقة لهزيمة الجيش.

أجاب لوسين:

— بحثت عن طريقة لأجعل تفوقه العددي بال قيمة.

اتسعت ابتسامة الأستاذ.

— بالضبط.

استدار نحو الطالب.

— أنت بالفعل موهبة فذة يا لوسين. وال عجب أنك في أفضل المراتب. إذا حافظت على هذا المستوى، فستصل إلى أماكن عظيمة

في المستقبل.

ثم نظر إليه.

— ولهذا سألتك أنت.

توقف لحظة. وأشار إلى آرثر.

— ولم أسأل الهائشة بجانبك.

رفع آرثر يده باعتراض.

— أستاذي!

ضحك بعض الطالب. قال الأستاذ:

الفصل الرابع: قهوة بطعم الخيبة

خمسة عشر عاماً مرّت منذ أن خطا لوسين أولى خطواته في أروقة الأكاديمية الملكية، وخمسة عشر عاماً كانت كافية لتحوّل الطفل الذي كان يتساءل عن سبب قسوة تدريبه إلى واحد من أعظم الفرسان الذين أنجبته المملكة.

تخرّج لوسين في المرتبة الأولى، متفوقاً على جميع أقرانه في المبارزة وركوب الخيل والتخطيط العسكري، حتى إن معلميه الذين اعتادوا توبيخه وجدوا أنفسهم يوماً يقفون أمامه بفخر ال يخلو من شيء من الحرج. لكنه لم يكتف بشهادة معلقة على جدار، وال بسيف يتألّل تحت ضوء الشمس؛ فقد جاءت الحرب لتختبر ما تعلّمه، ولتمنحه ما لم تستطع قاعات الدراسة أن تمنحه إياه. خاض أولى معاركه وهو ال يزال في مقتبل شبابه، وهناك اكتشف أن ساحة الحرب ال تشبه الخرائط المرسومة على الورق. رائحة الدم والحديد، صرخات الجرحى، وصوت الخيول الهائجة كانت كفيلة بتحطيم أكثر الرجال ثباتاً. ومع ذلك، ظل لوسين واقفاً، يقاتل حين يتطلب الأمر القتال، ويفكر حين يكون التفكير أثمن من ألف ضربة سيف.

في إحدى المعارك، حاصر جيش العدو كتيبته بين غابة كثيفة ونهر سريع الجريان. ظن القادة أن الهزيمة أصبحت مسألة وقت، لكن لوسين الحظ أمراً لم ينتبه إليه: أحد آثار عجالت حديثة على الطين، ومسار إمدادات ال يتناسب مع حجم الجيش المحاصر لهم. لم يندفع إلى الهجوم، بل أرسل مجموعة صغيرة عبر ممر ضيق، وأخفى فرسانه خلف مرتفع صخري، ثم ترك للعدو طريقاً بدا وكأنه منفذ للنجاة. وحين اندفعت قواته للحققتهم، أغلقت الطرق خلفها، وانقلب النسخاب الوهمي إلى فخ محكم. انتهت المعركة بانتصار بدا لمستحيّاً في بدايتها. ومنذ ذلك اليوم، لم يعد اسم لوسين يُذكر بوصفه فارساً بارعاً فحسب، بل لعقاً عسكرياً يصعب التنبؤ بخطوته التالية. ثم جاءت حادثة الخيانة.

كان أحد النبلاء يسرّب تحركات الجيش إلى العدو، لمستغاً مكانته وثقة الملك به. لم تكن هناك أدلة واضحة، ولم يكن الرجل يتصرف بما يثير الشبهات؛ بل كان من أول الواقفين في قاعة الحرب، وأكثرهم حرصاً على إظهار الولاء. لكن لوسين الحظ أن العدو كان يعرف في كل مرة موعد تحرك إحدى الكائب، حتى حين ال تُسجّل الأوامر في السجلات الرسمية. بدأ التحقيق بصمت. راجع الرسائل، وقارن أوقات وصولها، وتتبع طرق الخدم والرسل، حتى اكتشف أن المعلومات لم تكن تُسرّب من قاعة الحرب نفسها، بل من ملخصات تُرسل إلى أحد مستشاري النبيل.

وفي اجتماع حضره كبار القادة، وضع لوسين الرسائل أمام الملك، ثم عرض سلسلة من الأدلة التي لم تترك للخائن مجاًاً للهراوغة. ساد الصمت القاعة. حاول النبيل الإنكار، ثم الغضب، ثم التذرع بأن الأمر كله مؤامرة، لكن لوسين لم يرفع صوته مرة واحدة. اكتفى بأن دفع آخر رسالة نحوه وقال:

«الغريب أنك كنت تعرف موعد الهجوم قبل أن يعرفه قائد الكتيبة نفسها.»

في تلك اللحظة، تغيّر وجه الرجل. لم يحتج لوسين إلى سيف كي يهزمه؛ فقد كان قد انتزع منه سالحه قبل أن يدخل القاعة. بعدها توالى الترقية، حتى مُنح رتبة جنرال أعلى في سن مبكرة على نحو أثار دهشة المملكة. صار اسمه يسبق وصوله إلى ساحات القتال، وصار الجنود يطمئنون حين يعرفون أنه يقودهم.

ومع ذلك، لم يستطع الفوز بكل شيء. ففي القصر الذي عاد إليه منتصراً مراراً، كانت هناك أميرة واحدة يخسر أمامها دون أن يخوض معركة. إيالرا.

لم تعد الفتاة التي كانت تجل إليه الشاي والبسكويت حين يطول تدريبه، وال تلك التي كانت تجلس إلى جواره في الشرفة وتستمع إلى أحامله. أصبحت أكثر هدوءاً، أكثر، لانشغاًً وأكثر بعداً عنه. كانت تحييه حين تلتقيه، تسأله عن أحوال الجيش إن اقتضى المقام، ثم تمضي كأن بينهما مسافة ال تُقاس بالخطوات.

في البداية، أقنع نفسه بأنها كبرت، وأن واجبات الأميرة أثقلت أيامها. ثم أقنع نفسه

بأن الحروب غيّرت كليهما. وبعد ذلك، بدأ يتجنب البحث عن عينيها في القاعات،
ألن نظرة عابرة منها كانت توقظ فيه لأمماً يندم عليه طوال الليل.

كان الأمر أشبه بسكاكين صغيرة تستقر في قلبه كلما مرّت بجانبه دون أن تتوقف.
كم مرة وقف أمام باب غرفته، عازماً على مصارحتها، ثم عاد أدراجه؟ وكَم مرة قال
لنفسه إن عليه أن يتوقف عن التعلق بحلم قد ال يكون له مكان في قلبها؟ ومع ذلك،
ظل شيء خافت في داخله يرفض الاستسلام. صوت صغير، عنيد، يخبره أن بعض
المعارك ال تُربح بالسيوف، بل بكلمة واحدة تُقال في الوقت المناسب.

لكن لوسين، الذي واجه جيوشاً كاملة دون أن ترتجف يداها، لم يعرف كيف
ينطق بتلك الكلمة.

في الزمن الحاضر، جلس لوسين في أحد مكاتب القصر، يحتسي قهوته بينما يتربع
آرثر على الكرسي المقابل له، وقد وضع قدميه على طرف الطاولة رغم أن لوسين
هدده مراراً بإلقائه من النافذة إن كرر فعلته.

كانت رائحة القهوة تملأ الغرفة، وأشعة الشمس تتسلل من النافذة لتستقر فوق
كومة من التقارير العسكرية. قال آرثر وهو يدير فنجانته بين يديه:

«أتذكر حين ظننت أن بإمكانك الفوز في مباراة وأنت مصاب بجحى؟»

أجابه لوسين ببرود:

«أتذكر جيداً. وأتذكر أيضاً أنني فزت.»

«نعم ثم أغمي عليك فوق خصمك. ال أعرف كيف أهنتك على ذلك الإنجاز.»

ضحك لوسين، وكاد يجيبه، لكن آرثر اعتدل فجأة في جلسته وقال:

«على ذكر الإنجازات، أأل ترى أنه من الغريب أن يرسلنا الملك في مهمة في يوم

زفاف الأميرة؟»

تجمّد لوسين في مكانه. وفي اللحظة التالية، بصق القهوة دفعة واحدة.

«أأححححهااا زواج من؟!»

حدّق آرثر فيه، ثم نظر إلى القهوة المتناثرة على الطاولة.

«الأميرة يا عبقرى. إيالرا ستتزوج. أأل تعرف؟»

ظل لوسين يحدّق فيه لثانيتين، وكأن الكلمات وصلت إلى أذنيه بلغة ال يفهمها. انخفضت يده ببطء، واختفى المرح عن وجهه، ثم رمش بعينه وكأنه يحاول التأكّد من أنه لم يسمع خطأ.

«...بحقك هل نسيت أنني كنت في مهمة في أقصى البلاد منذ أشهر؟ كيف سأعرف؟»

قالها بنبرة حاول أن يجعلها طبيعية، لكن أصابعه انقبضت حول الفئجان الفارغ. أطلق زفرة قصيرة، ثم رفع حاجبيه نحو آرثر.

«وماذا سأفعل برأيك؟ أقتحم الزفاف بفأس: وأقول إما أن تتزوجيني وإما نموت معاً؟ بالطبع، إن عدنا مبكراً فسأهنّئها. أنا مجرد

فارس، في النهاية.»

صمت آرثر، لقليلاً ثم قال بصدق خالطه شيء من المزاح:

«لم أتوقع هذه الإجابة من الفتى المحب.»

أغمض لوسين عينيه، وأسند رأسه إلى ظهر الكرسي.

«أرحمني يا أخي. فك عن سمائنا! وأرضنا ال أعرف لماذا أحببتها لأصاً.»

ثم نظر إليه، والحظ أن ابتسامته قد خفّت.

«...أعتذر لم أقصد أن أقول ذلك بهذه الطريقة.»

رفع آرثر حاجبيه باستنكار.

«وما هذا الكلام أيها المعتوه؟ أنت صديقي وأنيس دربي. بالطبع سأقبل فشلك !
العاطفي بل سأحرص على تذكيرك به حتى آخر يوم

في حياتك.»

صفعه لوسين بخفة على مؤخرة رقبته.

«أيها الوغد!»

ضحك آرثر وهو يفرك رقبته، ثم مد قبضته نحو صديقه. المس لوسين قبضته بقبضته،
كما اعتادا أن يفعل منذ أيام الأكاديمية. لكن حين عاد آرثر إلى فنجانته، ظل لوسين
ينظر إلى قهوته الباردة. كان يستطيع مواجهة الخونة، وقيادة الجيوش، وتغيير مسار
الحروب. أما فكرة أن يقف يوماً أمام إيلارا ويبتسم لها وهي ترتدي ثوب زفافها
لرجل آخر.. فلم يكن يعرف أي سيف في العالم يمكنه أن يحمله من ذلك.

الفصل الخامس : حين مات نصف الروح

مر شهر كامل. شهر حاول فيه لوسين أن يقنع نفسه بأن الحياة ال تتوقف عند باب أ غلق في وجهه، وأن زفاف إيالا ليس سوى فصل آخر من فصول الحياة التي لم تمنحه يوماً ما أراد. شهر أمضاه غارقاً في التقارير العسكرية والتدريبات، متظاهراً بأن خبر زواج الأميرة لم يترك في صدره سوى فراغ عابر. ثم جاء اليوم المنتظر. كان الصباح ملبدًا بسحب رمادية ثقيلة، حتى إن الشمس بدت كأنها نسيت طريقها إلى المملكة. هبت الرياح بين أبراج القصر، وحملت معها برودة غير مألوقة، بينما راحت الأشجار تنحني تحت وطأة الريح كأنها تتلقى إنذاراً ال يفهمه سواها. في ساحة التجمع، وقف الجنود أمام خيولهم، يتفقدون سيوفهم ودروعهم ويشدون أحزمة معداتهم. كان من المفترض أن تكون مهمة روتينية لدعم جبهة بعيدة في عمق الغابة، وفقاً لأوامر محتومة بختم الملك. لكن الملك لم يحضر. لم يقف أمامهم ليلقي خطاباً يحفزهم، ولم يأت حتى ليودع القادة كما اعتاد قبل المهمات المهمة. ومع ذلك، لم يبد الأمر غريباً ألد؛ فالיום زفاف ابنته، وال عجب أن يفضل البقاء في القصر. على الأقل، هكذا قال الجميع. كان لوسين يفحص قائمة الجنود حين اقترب منه آرثر، وهو يشد قفازه الجلدي بأسنانه.

«أتعلم؟ لو كنت ملكاً، لجعلت كل المهمات العسكرية تتوقف في يوم زفافي.»

رفع لوسين عينيه إليه.

«أنت لو كنت ملكاً، أعلنت الحرب على أول شخص يرفض إعارتك حصانه.»

«هذا اقتراء. سأعلن الحرب على الشخص الذي يرفض إعارتي حصانه الجميل فقط.»

ابتسم لوسين ابتسامة قصيرة، ثم عاد إلى القائمة. شيء ما لم يعجبه. كان تشكيل الكتيبة غريباً؛ فرسان من وحدات مختلفة، ومخططون عسكريون، وحدادون

عسكريون، وجنود من أقسام لم يسبق لها العمل معاً. والأغرب أن معظمهم يعرف بعضهم بعضاً، إما أنهم درسوا في الصفوف نفسها، أو أنهم خدموا معاً في وحدات مترابطة. لم يكن ذلك، لمستحيًا لكنه لم يكن التشكيل الذي يختاره قائد عاقل لمهمة دعم عادية. الحظ آثر الأمر أيضاً.

«هل تظن أنهم جمعونا على عجل؟»

أجاب لوسين وهو يمرر إصبعه على الخريطة:

«ربما نحتاج إلى حدادين ميدانيين في الجبهة، والمخططون قد يكونون لتقييم الوضع.»

«والفرسان من خمس وحدات مختلفة؟»

«ال أعرف.»

نظر آرثر إلى ختم الملك على وثيقة الأوامر، ثم هز كتفيه.

«ما دام الأمر يحمل توقعه، فليس لدينا سبب للشك.»

أعاد لوسين طي الورقة ووضعها في حقيبته.

«صحيح هيا، قبل أن تقرر مهاجمة الحدادين أنهم يحملون مطارق أكبر من مطرقتك.»

«مطرقتي ليست كبيرة.»

«بالطبع إنها مجرد سلاح حصار صغير.»

انطلقت ضحكة من أحد الجنود القريين، وانطلق معها شيء من المرح الخافت بين الرجال. ثم دوى صوت البوق، فتحركت الكتيبة نحو الغابة، تاركة خلفها ساحة القصر وجرساً بعيداً بدأ يعلن احتفالات الزفاف. كان ذلك آخر صوت سعيد يسمعه بعضهم في حياتهم. *** كلما توغلوا في الغابة، ازدادت الأشجار كثافة، وتحول ضوء النهار إلى خيوط باهتة تتسلل بين الأغصان. كانت الأرض رطبة، والضباب

يزحف بين الجذور، فيما راحت الخيول تصهل بقلق لم يستطع الفرسان تفسيره.
حاول آرثر كسر الصمت.

«هل تتذكر أول مرة خرجنا فيها من الأكاديمية؟»

«حين سقطت عن حصانك أمام قائد الفرسان؟»

«كان الحصان هو المخطئ.»

«لقد كنت تسير إلى الخلف.»

«كنت أختبر قدرته على التراجع.»

هز لوسين رأسه ضاحكاً، لكن ابتسامته اختفت حين لمح آثاراً غريبة على الأرض.
لم تكن آثار أقدام عادية؛ بل علامات متقطعة، كأن عدداً كبيراً من الرجال مر من
هناك ثم حاول إخفاء مساره. وقبل أن يتكلم، أشار آرثر إلى الأمام.

«وصلنا تقريباً.»

كانت الجبهة التي قيل إنهم سيعزونها تقع في منخفض بين الأشجار، لكن لم تظهر
أمامهم رايات صديقة، وال حواجز دفاعية، وال حتى دخان مخيم عسكري. فقط
صمت. صمت كثيف، كأن الغابة تحبس أنفاسها. مال آرثر نحو لوسين، وانخفض
صوته.

«هناك شيء خاطئ.»

نظر إليه لوسين بطرف عينه.

«وما هو، يا صاحب نظريات المؤامرة؟ هل اكتشفت أن الأشجار تتآمر علينا؟»

لم يضحك آرثر.

«أتحدث بجدية. هل فكرت يوماً في الرابط الذي يجمعنا جميعاً؟»

«نحن جنود في الجيش نفسه. هذا رابطٍ كافٍ.»

«ال أقصد الرابط الحقيقي.»

توقف لوسين عن تفقد محيطه ونظر إليه. تابع آرثر بصوت أثقل:

«كل واحد منا يحمل ضغينة ضد الأمير. أنا، لمثاً الفتاة التي أحببتها اختارته هو. وأنت.. أنت تحب أخته.»

شعر لوسين بأن شيئاً بارداً انزلق على طول ظهره. أكمل آرثر:

«بعضنا خسر مكانته بسببه، وبعضنا تضررت عائلته بسبب قراراته. لسنا مجرد مجموعة من الجنود؛ نحن أشخاص جمعهم شيء

واحد، حتى لو لم نعترف به. أظن أن أحدهم اختارنا لهذا السبب.»

فتح لوسين فمه ليحجبه، لكن — **انفجرت الأرض تحتهم. ** ابتلع الضوء الغابة في ومضة بيضاء، ثم ارتفع التراب والحجارة والخيول والرجال في الهواء كأن يداً عمالقة انتزعهم من العالم. دوى الانفجار حتى اهتزت الأشجار، وتكسرت الأغصان فوق الرؤوس، وانطلقت صرخات لم تكتمل قبل أن تبتلعها الانفجارات التالية. سقط لوسين عن حصانه بعنف. ارتطم كتفه بصخرة، وشعر بشيء حاد يمزق جانبه. للحظات، لم يسمع سوى صفير حاد داخل أذنيه. ثم عاد العالم إليه دفعة واحدة. صليل الحديد. صراخ الرجال. خيول تتلوى على الأرض. سهام تتطلق من بين الأشجار. أعداء يندفعون من كل جانب. لم تكن هناك جبهة تحتاج إلى الدعم. لقد أرسلوا إلى المذبحة.

نهض لوسين مترنحاً، وانتزع سيفه. كان الدم يسيل من جبهته إلى عينيه، لكنه قاتل. ضرب الأول، وأسقط الثاني، ثم صد هجوم ثالث قبل أن يطعنه في كتفه. لم يعد يفكر في الخطة أو التشكيل، بل في البقاء، وفي الأصوات التي أخذت تخفت من حوله. كان رجال الكتيبة يسقطون من الجهتين. أولئك الذين قاتلوا إلى جانبه

لسنوات، والذين شاركوه الخبز والضحكات والمخاطر، كانوا يختفون واحداً تلو الآخر وسط الطين والدم. وبعد زمن لم يعرف طوله، انتهى كل شيء.. لم يبق سوى الريح. وقف لوسين في وسط الخراب، يلهث بعنف. كان جسده مغطى بدمائه ودماء الآخرين، واختلط الطين بعرقه على وجهه. اهتز سيفه في يده، ال من الخوف وحده، بل من الإرهاق الذي كاد يسلبه القدرة على الوقوف. صرخ:

«آرثر!»

لم يجبه أحد.

«أيها الحمقى هل يسمعي أحد؟!»

دار بعينه بين الجثث، يتعثر بجثث الخيول وبقايا الدروع المحطمة. ثم لمح يداً ترتفع قليلاً من خلف صخرة. ركض نحوها. لكن لرجاً من الأعداء كان ال يزال يتحرك قرب الطريق. أمسك لوسين بسيفه، وغرسه في يد الرجل قبل أن يتمكن من التقاط خنجره. صرخ العدو، فقبض لوسين على درعه وجره نحوه.

«من أرسلكم؟ اعترف!»

«لا. أعرف.. أقسم—»

ركله لوسين بعنف.

«ال تكذب! علي من أرسلكم؟!»

ارتجف الرجل تحت قبضته، وراح يستجدي الرحمة، لكن لوسين لم يعد يرى أمامه سوى الوجوه التي سقطت منذ لحظات.

«الرحمة؟»

ضحك ضحكة قصيرة خالية من أي فرح.

«أين كانت رحمتكم حين ذبحتم رجالي؟»

تلثم الرجل، ثم قال بصوت متقطع:

«...الأمير أمير مملكتكم، وأمير مملكتنا.. اتفقا على هذا. ال أعرف شيئاً آخر!»
تجدد لوسين. للحظة، بدا وكأنه لم يفهم الكلمات. ثم انخفض رأسه، لقليلًا وارتسمت على وجهه ابتسامة صغيرة، مرعبة أكثر من غضبه.
«الأمير؟»

ارتجفت شفتاه.

«أهذا هو السبب؟»

بصق الرجل قرب قدميه، وقال:
«لقدُ»

أمرنا بقتل كل من في الكتيبة. لم يكن ينبغي ألد أن يعود.»
حدق لوسين فيه، لطويًا ثم دفعه إلى الأرض.

«الرحمة؟ أين كانت رحمتكم حين قتلتم أعز من في قلبي؟»

توقف، والتفت نحو اليد التي لحها من بعيد.

«صلّ ألن يكون آرثر حيًا. وإال، أقسم لك أن مصير الأميرين سيكون أسوأ من مصيرك.»

أخذ من حقيبتة مسحوقًا متفجرًا كان يستخدمه في المهمات الميدانية، ولفه بقطعة قماش. لم يكن يفكر بوضوح، ولم يحاول أن يقنع نفسه بأن ما يفعله عدالة أو انتقام. كان الغضب قد استولى على كل شيء داخله، ولم يبق إل صوت واحد يصرخ بأن العالم أخذ منه ما ال يحق له أخذه. أشعل الفتيل، ثم حشر العبوة في فم الرجل وابتعد. دوى انفجار قصير خلفه. وتناثرت أشالء رأس رجل مع عدم و لحم و دم لم يلتفت. كان يركض نحو آرثر.

*** وجده ممدداً على جانبه، وقد انزاح جزء من درعه عن صدره. كان وجهه شاحباً، وشفته ترتجف مع كل نفس. ضغط يده على جرحه، لكن الدم كان يتسرب بين أصابعه، دافئاً. لوثقياً سقط لوسين على ركبتيه بجانبه.
«آرثر؟»

فتح صديقه عينيه بصعوبة.

«...تأخرت كالعادة.»

خرجت من لوسين ضحكة مختنقة، سرعان ما تحولت إلى شهقة.
«اصمت سأخرجك من هنا. هل تسمعي؟ ستعود معي، وسأجعل الطبيب يعالجك، وبعدها سأكسر ساقك بنفسني ألنك جعلتني أركض كل هذه المسافة.»

حاول آرثر الضحك، لكنه سعل دمًا.

«يا لك .من .رجل رومانسي.»

ضغط لوسين على جرحه بكتا يديه.

«،تماسك أرجوك. ال ترحل.»

نظر آرثر إليه ، لطوياً وكأنه يحاول حفظ مالمحه.

«...لوسين اسمعي.»

«لن أسمع شيئاً. ستنهض لأوأ.»

«أعطني دقيقة، أيها الغبي.»

رفع آرثر قبضته ببطء، بصعوبة بدت أكبر من قدرته على الاحتمال. فهم لوسين ما يريد، فرفع قبضته المرتجفة ولمسها بقبضة صديقه. ابتسم آرثر ابتسامة واهنة.

«... لأوأ أعطيك الإذن بأن تتخذ شخصاً آخر صديقاً مقرباً.»

حدق لوسين فيه، والدموع تتجمع في عينيه رغم محاولته حبسها.

«ما هذا الهراء؟»

«...أعرفك أيها الوجد الوفي. ستعزل نفسك عن الناس، وستقضي بقية حياتك

تحدث إلى سيفك. وال أريد أن أراك تفعل ذلك.»

ارتجفت شفتا لوسين. تابع آرثر، وهو يلتقط أنفاسه بصعوبة:

«...ثانياً إذا تزوجت يوماً، أريد أن تسمي ابنك الأول باسمي.»

«ستسميه بنفسك، أيها الأحمق.»

«لا. ال.. أريد أن أضمن أن لطفاً واحداً على الأقل في هذه المملكة سيحمل اسماً

عظيماً.»

خرجت من لوسين ضحكة صغيرة رغماً عنه، ثم انهارت على وجهه كأنها لم تكن.

أغمض آرثر عينيه لحظة، قبل أن يفتحهما من جديد.

«...وثالثاً أريدك أن تقطع ذلك الأمير الخائن إرباً إرباً. وانسف رجولته إن كانت

موجودة لأصاً.»

ضحك كاهما. كانت ضحكة مكسورة، تتعثر بين السعال والدموع، لكنها كانت

ضحكتها؛ الضحكة نفسها التي رافقتها في قاعات الأكاديمية، وعلى طرقات السفر،

وفي الليالي التي ظنا فيها أن العالم مهما اتسع لن يستطيع التفريق بينهما. ثم سكت

آرثر. رفع لوسين رأسه بسرعة.

«آرثر؟»

لم يجبه.

«آرثر انتهت المزحة. افتح عينيك.»

حرّك كتفه برفق، ثم بعنف أكبر.

«!هيا ال تفعل هذا بي!»

تنفس آرثر نفساً أخيراً، وخرج صوته خافتاً، بالكاد بلغ أذن صديقه:

«...أتمنى في حياة .أخرى.. أن نلتقي يا صديقي.»

ارتخت يده. وانطفأت عيناه. ظل لوسين ينظر إليه، ينتظر حركة من صدره، أو ارتعاشة من أصابعه، أو حتى ابتسامة ساخرة تخبره أن الأمر مجرد مزحة أخرى من مزح آرثر السخيفة. لكن الصمت لم يتغير.

«آرثر؟»

ال شيء. مد يده المرتجفة إلى وجه صديقه، وأغمض عينيه برفق. بقيت أصابعه فوق جفنيه لحظات طويلة، كأنه يخشى إن رفعها أن يضطر إلى الاعتراف بأن الرجل الذي عرفه طوال عمره لن ينظر إليه مجدداً. انحنى حتى المست جبهته جبهة آرثر.

«أنا آسف يا صديقي.»

خرج صوته ضعيفاً، غريباً، كأنه صوت رجل آخر.

«أنا آسف ألني لم أكن أسرع. ألني لم أفهم ما يحدث. ألني لم أستطع حمايتك.»

ابتلع ريقه، وارتجف فكه.

«لقد وعدتني أن .تبقى.. أتذكر؟ قلت إنك ستأتي معي عندما أصبح ، لجنراً وإنك ستشرب قهوتي الرديئة كل صباح، وإنك ستسخر

مني حتى أموت.»

انكسرت كلماته.

«...فلماذا لماذا أنت الذي رحلت أوأل؟»

حاول التماسك. كان يعرف أن الصراخ بجانب الموتى لن يعيدهم، وأن البكاء لن يوقف الدم عن التجلط، وأن الجنرال ال يملك رفاهية النهيار حين ال يزال الخطر قريباً. لكن لم يكن هناك أحد يراه الآن. ال جنود. ال ملك. ال أميرة. ال رتبة عسكرية تُلزمه بأن يكون صلباً. كان هناك لوسين فقط، وصديقه الميت. وفجأة، انفجر الألم داخله. صرخ. صرخة شقت سكون الغابة، فارتجفت الطيور بين الأغصان، وتردد صداها بين الأشجار كأن الأرض نفسها تنوح على من ابتلعهم. ضرب الأرض بقبضتيه، ثم احتضن جسد آرثر، وبكى كما لم يبكي قط. كانت دموعه تسقط على وجه صديقه، تختلط بالتراب والدم، فيما راحت جروحه تنفتح من جديد تحت ضغط حركته. شعر بالألم في كل جزء من جسده، لكنه لم يحاول إيقاف النزيف. لم يكن ذلك شيئاً يذكر. ليس مقارنة بما انكسر داخله.

«آرثر!»

تشبث به أكثر.

«عدّ إلي، أرجوك سأفعل أي شيء سأعطيك كل شيء. فقط.. ال تتركني وحدي!»

لم تجبه إل الريح. وفي مكان بعيد، كانت أجراس القصر تعلن اكتمال زفاف الأميرة. أما في الغابة، فقد جلس جنرال المملكة بين جثث رجاله، يحتضن صديقه الذي لم يستطع إنقاذه، بينما كانت السماء الرمادية تبدأ أخيراً في إسقاط المطر. لم يعرف لوسين إن كان المطر هو الذي ابتل وجهه، أم أن السماء كانت تبكي معه. لكنه عرف شيئاً واحداً. في ذلك اليوم، لم يخسر رفيق دربه فحسب. لقد مات الجزء الأخير من الفتى الذي كان يظن أن العالم، مهما قسا، ال يزال يستحق أن يُحب

الفصل السادس: ابتسامة على حافة الهاوية

الفصل: السادس ابتسامة على حافة الهاوية لم يعد لوسين يسمع المطر، وال ريح، وال حتى أنفاسه المتقطعة. كان كل ما يراه وجه آرثر، وعيناه اللتان أغمضهما بيديه منذ لحظات، وابتسامته الأخيرة التي بقيت عالقة في ذاكرته كطعنة ال تنتهي. ظل جالساً بين الجثث، وذراعه ملطختان بالدماء، حتى شعر بشيء يتغير في داخله. لم يكن حزناً هذه المرة، بل غضباً. غضباً أسود، لوثقياً أخذ يزحف من أعماق صدره حتى غطى على كل ما تبقى فيه من رحمة. انقبضت أصابعه حول مقبض سيفه، وارتجفت شفتاه، بينما راحت أنفاسه تخرج متقطعة من بين أسنانه.

«الأمير...»

قالها بصوت خافت، ثم رفع رأسه نحو الغابة.

«أنت فعلت هذا.»

نهض بصعوبة، وكاد يسقط حين خائته ساقاه، لكنه تشبث بجذع شجرة حتى استقام. كان الدم يتسرب من جروحه، وثيابه الممزقة تلتصق بجسده. حاول أن يتجاهل الألم، إل أن كل حركة كانت تذكّره بحالته. وبينما كان يتلفت بحثاً عن حصان صالح، لمح حركة بين الأشجار. كان فارساً من العدو يراقب ساحة المذبحة من بعيد. التقت عيناهما. تراجع الفارس مدعوراً، واستدار بحصانه لمحاو الفرار.

«لن تفلت، أيها اللعين!»

انتزع لوسين قوساً من جوار أحد الجنود القتلى، والتقط سهماً من جعبة ملقاة في الوحل. كادت أصابعه تعجز عن تثبيته، لكن ذاكرة التدريب القديم عادت إليه، وكأن جسده يعرف ما ينبغي فعله حتى حين تكاد قوته تنفد. شد الوتر وأطلق السهم. شق السهم الهواء وأصاب الفارس، فاختل توازنه وسقط عن حصانه، بينما

تابع الحصان ركضه قبل أن يختفي بين الأشجار. وصل لوسين إليه بخطوات متعثرة. كان الرجل يحاول الابتعاد عنه، مستعيناً بما بقي له من قوة.

«...انتظر أرجوك...»

لم يجبه لوسين. أمسك بدرع الرجل وجذبه نحوه، ثم انهالت قبضته عليه. لم يكن يسأله عن خطط العدو، ولم يكن يبحث عن معلومات. لقد أراد أن يخرج شيئاً من ذلك الألم الذي أخذ يطبق على صدره، ولو للحظات. لكمة، ثم أخرى. ومع كل ضربة، كانت صورة آرثر تعود إلى ذهنه، وصوته الأخير يتردد في أذنيه. في حياة أخرى...

«اصمت!»

هتف بها لوسين، وكأنه يخاطب صديقه الميت، ثم واصل ضرباته. لم يتوقف إل حين انقطعت مقاومة الرجل تماماً. عندها بقي جاثياً أمامه، يحدق في يديه المرتجفتين، كأنه لم يعد يعرفهما. لم يشعر بالراحة التي تخيل أنه سيجدها. لم يخفف وجه آرثر، ولم يتراجع الألم. كل ما بقي هو صمت الغابة وثقل ما فعله. نهض بصعوبة، وأخذ حصان الفارس، ثم استند إلى سرجه بكل ما بقي له من قوة وانطلق نحو القصر. لم يكن عائداً بصفته، لجنراً بل بصفته لرجاً لم يبق له شيء يخسره.

وصل إلى القصر مع حلول المساء، حين كانت الأضواء تتألأل خلف النوافذ، وتنساب الموسيقى من قاعة الحفلات إلى الحدائق. كانت المملكة تحتفل. في الداخل، ارتفعت الكؤوس، وتعالَت الضحكات، وتبادلت الوجوه التهاني. أما في الخارج، فقد ترحل لوسين عن حصانه عند مدخل جانبي قديم، يستخدمه العاملون لنقل مخلفات الوحوش التي تُستغل جلودها وعظامها في صناعة المعدات والمواد السحرية. كان يعرف ذلك المدخل منذ طفولته، كما يعرف الممرات التي ال يلتفت إليها أحد. دخل مترنحاً، ومر بين الصناديق والأقفاس الفارغة وبقايا الوحوش المحفوظة في مستودعات باردة. أثارت رائحة الحديد والمواد الكيميائية القديمة دواراً

حاداً في رأسه، فأسند يده إلى الجدار. وفجأة، لم يعد يرى المستودع. رأى ممراً مضاء
بشمس الصباح، لوطفاً صغيراً يركض أمامه، بشعر أشعث وركبتين مغطاتين بالغبار.
كان هو؛ لوسين الصغير، يركض ضاحكاً، بينما تتبعه طفلة صغيرة بفستان فاتح،
ترفع طرفه كي ال تتعثر. إيالرا. بدت كما كانت في طفولتها، بوجهها البريء وعينيها
الاملعتين.

«أسرع يا لوسين!»

ضحك الطفل والتفت إليها.

«لن تمسكي بي أبداً!»

اختفت الصورة حين ارتطم كتف لوسين بالجدار. عاد المستودع مظلماً وبارداً،
وخالياً إل منه. أغمض عينيه وابتلع الألم الذي صعد إلى حلقة.

«بدأت أرى أشياء غير موجودة...»

رفع يده إلى جرحه، ثم نظر إلى الدم العالق بأصابعه. كان يعرف ما يعنيه ذلك. لم
تكن جراحه تلتئم، ولم يمنح جسده فرصة الالتقاط أنفاسه منذ الكمين. لقد استنزف
نفسه في القتال، ثم واصل السير رغم النزيف والإرهاق. كان يستطيع الوقوف
والتحرك، لكن ذلك لم يكن لدلياً على أنه بخير. كان جسده يقترب من حدوده
الأخيرة، ولم يعد أمامه وقت طويل إن استمر على هذا الحال. ومع ذلك، تحرك.
وجد خرطوماً قرب حوض التنظيف، فاستخدمه لإزالة الطين والدم عن درعه قدر
ما استطاع. ثم تسلل إلى مركز تخزين الدروع، حيث أخذ خوذة كاملة تغطي وجهه،
واختار عباءة داكنة تخفي ما تمزق من مالبسه. كان القصر بأكملة لمنشغاً بالزفاف. لم
يكن أحد ينظر إلى الممرات الخلفية، ولم يكن أحد يتوقع عودة الجنرال الذي أ
رسل إلى الموت. بعد ذلك، وصل إلى مخزن المتفجرات. وقف أمام البراميل
لحظات، يتأملها بعينين غائرتين. كان في وسعه أن يتراجع، أو يطلب النجدة، أو
يسلم الأدلة إلى الملك وينتظر العدالة. لكن صورة آرثر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة

عادت إليه، فمد يده وأخذ ما يحتاج إليه من المتفجرات. لم تتحرك يداه بثبات كامل، غير أن عقله، على نحو غريب، صار هادئاً. كان ذلك هدوء رجل تجاوز الخوف، أنه لم يعد يرى أمامه لمستقبلاً يخشى خسارته.

في غرفة الأمير، عمل لوسين بصمت. رتب البراميل والمواد القابلة للاشتعال في مواضع تخدم نخباً مميّنة، ثم راجع ما أعدّه ليتأكد من أن آثاره لن تقود إلى رجال أبرياء. لم يكن يريد أن يسقط خدم القصر أو حراسه الذين ال ذنب لهم. كان يريد شخصاً واحداً الأمير الذي باع جنوده، وترك صديقه يموت. وحين انتهى، جلس إلى الطاولة وأخرج ثالث أوراق. ظل القلم بين أصابعه وقتاً. لطوياً كانت الرسالة الأولى إلى إيالرا، والثانية إلى الأمير، والثالثة إلى الملك والمملكة. بدأ برسالة إيالرا، لكنه لم يستطع الكتابة فوراً. رفع رأسه، فرأى في خياله شرفة القصر، وفجاني الشاي، ولوحة فارس الزمن التي رسمها في طفولتهما. ابتسم بحزن، ثم بدأ يكتب. طوى الرسالة بعناية، ووضعها داخل درعه قرب صدره. أما رسالة الأمير، فعلقها على باب غرفته. واحتفظ بالرسالة الأخيرة ليضعها في غرفة الملك. وقبل أن يغادر جناح الأمير، اعترضه الحارسان اللذان كانا يعملان لحساب الأخير. لم يكن الحارسان من أصحاب الخبرة الكبيرة؛ كانا جنديين مبتدئين، ولم يتوقعا أن يواجها لرجاً مثل لوسين. أما هو، فرغم جراحه وإرهاقه، فقد أمضى سنوات في التدريب والقتال، وصار قادراً على قراءة حركة خصمه قبل أن يقرر كيف يواجهه. لم يمنحهما الوقت الكافي لتنظيم صفوفهما. تفادى هجوم الأول، وأبعد ساحله عن مساره، ثم حيّده قبل أن يلتفت إلى الثاني.

حاول الحارس الآخر المقاومة، لكن فارق الخبرة كان أكبر مما يستطيع تعويضه. انتهى اللشباك سريعاً. غير أن الانتصار لم يمر بالثمن. ما إن ابتعد لوسين عنهما حتى اضطر إلى الاستناد إلى الجدار. ضاق نفسه، وشعر بأن الألم الذي تجاهله طوال الوقت يعود دفعة واحدة. انتظر لحظات حتى استطاع الوقوف، ثم واصل طريقه. لم يكن قد انتصر على جراحه؛ كان يؤجل سقوطه فحسب. وضع رسالة الملك والمملكة

فوق مكتبه، ثم ابتعد عن الغرفة بخطوات أثقل من ذي قبل، متجهاً نحو قاعة الاحتفالات. كانت إيالرا تمشي إلى جوار والدها حين لمحته. رجل يرتدي درعاً داكناً وخوذة تخفي ماله، يقف عند طرف القاعة، بعيداً عن الأضواء والضيوف. لم تعرف كيف عرفته. ربما ألن بعض الأشخاص يصبحون مألوفين إلى حد أن حضورهم يُعرف قبل أن تلتفت إليهم العين. وربما ألنها اعتادت البحث عنه في الأماكن التي يغيب عنها. لطويلاً لوسين. لم تر وجهه، لكنها شعرت بأن الرجل الواقف هناك ليس غريباً عنها. توقفت خطواتها للحظة، والتفتت نحوه. كان واقفاً باستقامة غريبة، وكتفاه ساكنتين على نحو أثار قلقها. لم يرفع يده لتحياتها، ولم يقترب. فقط وقف هناك، كأنه جاء ليتأكد من شيء ثم يرحل. التقت عيناهما من خلف فتحة الخوذة.

لم تستطع إيالرا معرفة ما الذي كان يمر في ذهنه، لكنها شعرت بتعبه، وبشيء ثقيل يحيط به، كأن الرجل الذي أمامها يحمل على كتفيه حزناً لا تستطيع الكلمات احتواءه. أرادت أن تذهب إليه. أن تسأله أين كان، ولماذا يبدو كأنه لم ينم منذ أيام، ولماذا شعرت فجأة بالخوف عليه. لكن المراسم كانت قد بدأت، ووالدها يمسك بذراعها، والضيوف ينتظرون. فاكثفت بأن منحته نظرة هادئة، نظرة حاولت أن تضع فيها كل ما عجزت عن قوله. لوسين، الذي لم يعد يملك القوة لرفع سيفه، شعر بتلك النظرة كأنها يد تمتد إليه من خلف جدار طويل. هداً قلبه. لقليلاً لثوان معدودة، عاد إلى الشرفة القديمة، وإلى الفتاة التي كانت تقول له إنه ليس مضطراً إلى إثبات قوته كل يوم. أغمض عينيه تحت الخوذة. شكراً، إيالرا. كانت تلك آخر لحظة شعر فيها بالسالم.

انتهت المراسم، وتعالى التهاني، ثم بدأ الضيوف يتفرقون داخل القصر. لمح الأمير الرجل المدرع عند طرف القاعة، فتغير وجهه. اقترب منه بخطوات غاضبة، بينما كان الملك يسير خلفه، وإيالرا وزوجها الجديد على مقربة منهما.

«ماذا تفعل هنا، أيها الحثالة؟»

لم يتحرك لوسين. اقترب الأمير أكثر، وازداد صوته ارتفاعاً.
«ألم تفهم أن هذا ليس مكانك؟ أم أنك عدت لتتوسل إلى أختي بعد أن تزوجت؟»
ساد صمت متوتر حولهم. التفت الملك نحو ابنه، وقد اشتعل الغضب في عينيه.
«ماذا قلت؟»

حاول الأمير التراجع عن كلماته، لكنه كان قد تجاوز الحد. صفعه الملك بقوة،
حتى انحرف وجهه إلى الجانب.
«ماذا تظن نفسك، أيها اللعين؟ ألف رجل مثلك ال يساوون إصبعاً من لوسين!»
ثم التفت إلى الرجل المدرع.
«لوسين؟»

لم يجبه. خطا الملك نحوه، وقد بدأ القلق يحل محل غضبه.
«يا بني؟»
الحظت إيالرا شيئاً داكماً يتسرب من أسفل الدرع، ثم يسقط على الأرض قطرة تلو
أخرى. دم. تجمدت في مكانها.
«أبي...»

لم يسمعها أحد. حدقت في الأرض، ثم رفعت عينيها إلى الرجل الذي وقفت أمامه
مشاعر كثيرة لم تجد لها اسماً واضحاً.
«لا...»

ركضت نحوه.
«لوسين!»

لم يتحرك. وصل الملك ، لأواً ومد يديه المرتجفتين إلى الخوذة. نزعها ببطء، وفي

اللحظة التي ظهر فيها وجه لوسين، تراجع الملك خطوة كأن أحدهم طعنه في صدره. كان وجهه شاحباً، وعيناه مغلقتين، وآثار الدم قد جفت على جانب فمه. بدا هادئاً على نحو ال يشبه التعب الذي كان ينهش جسده منذ ساعات. وكانت على شفثيه ابتسامة صغيرة، كأن شيئاً من السالم الذي شعر به قبل قليل قد بقي معه حتى النهاية.

«لوسين...؟»

هز الملك كتفه.

«لوسين افتح عينيك!»

لم يستجب. اقتربت إيالرا، وقد بدأ الخوف يتسلل إلى صوتها.

«...لوسين أرجوك.»

لم يفتح عينيه. حاول الملك أن يسنده، لكن جسد لوسين فقد ما تبقى له من قوة. كان نزيفه قد استمر طوال الطريق، ولم تمنحه رحلته الطويلة وال ما فعله داخل القصر فرصة للراحة. لقد ظل يتحرك بإرادة وحدها، لمتجهاً إشارات جسده حتى لم يعد قادراً على تجاهلها. ترنخ بين يدي الملك، ثم انهار. صرخت إيالرا صرخة مزقت القاعة.

«لوسين!»

أمسكت بذرعه، وراحت تهزه بكلتا يديها.

«ال تفعل! هذا أرجوك، انظر! إلي لقد رأيتني، أليس كذلك؟ كنت! هنا فلماذا ال تتكلم؟»

انهارت على ركبتها، والتقطت يده بين كفيها. كانت باردة، وقد بدأ لونها يفقد دفئه. شعرت بأن شيئاً في داخلها ينسحب إلى مكان ال تستطيع الوصول إليه. وصل الأطباء والحرس، وارتفعت الأصوات، لكن أحد الأطباء، بعد فحص

طويل، خفض رأسه أخيراً.

«...موالي لقد مات. جراحه شديدة، ويبدو أنه استنزف ما بقي من قوته قبل وصوله إلى هنا.»

لم يفهم الملك الجملة في البداية. ثم هز رأسه بعنف.

«ال استدعوا طبيباً! آخر أحضروا جميع الأطباء هذا أمر ملكي!»

لكن الموت ال يطيع الأوامر الملكية. احتضن ماركوس لوسين، الملك الذي وجدته رضيعاً بين الأنقاض، وبكى كما لم يبك ملك أمام رعيته قط.

«لقد وعدتك.. وعدتك أن أحملك.»

ارتجف صوته.

«لماذا لم أستطع حمايتك؟»

أما إيالرا، فكانت تحديق وجه لوسين، عاجزة عن استيعاب أن الرجل الذي عرفتة منذ طفولتها، والذي ظنت أن الوقت ما زال يمنحها فرصة للحديث معه، قد رحل دون أن يقول لها كلمة واحدة. لم تستطع أن تحدد ما الذي كان يؤلمها: أكثر غيابه المفاجئ، أم الكلمات التي لم تعرف أنه يحملها، أم ذلك الشعور الغامض بأنها فقدت شيئاً لم تفهم قيمته إل حين صار بعيداً عن متناولها. ثم الحظت الورقة المثبتة داخل درعه. مدت يداً مرتجفة وانتزعتهما. كان اسمها مكتوباً عليها بخط تعرفه جيداً. خط لوسين. هربت إيالرا من القاعة دون أن تسمع نداءات والدها. ركضت عبر الممرات حتى وصلت إلى الشرفة القديمة، المكان الذي كانت تجلس فيه مع لوسين حين كانا طفلين، قبل أن تتعلم كيف تخفي ما يضطرب في داخلها خلف واجباتها، وقبل أن يتعلم هو كيف يخفي ألمه خلف ابتسامة. كان كل شيء كما تركاه: تقريباً الكرسيان الخشبيان، والطاولة الصغيرة، والنافذة التي تطل على الحدائق. وفوق رف قريب، كانت لوحة فارس الزمن، مرسومة بيد طفل مولع بأسطورته، بدرع أسود

ونقوش بيضاء ورمح طويل وعينين خضراوين رسمهما لوسين بعناية ال تشبه عناية طفل عادي. اقتربت منها واحتضنتها إلى صدرها، ثم فتحت الرسالة. إلى إيالرا، ال أعرف إن كنت سأجد الشجاعة يوماً ألقول لك ما سأكتبه هنا، لذلك سأترك للكلمات أن تفعل ما عجزت عنه طوال حياتي. أحبتك.

أحبتك حين كنت طفلة تركضين في حدائق القصر، وحين كنت تحملين إلى الشاي أنك ظننت أن التدريب يجعلني حزيناً. أحبتك حين كنت تضحكين من حماقات آرثر، وحين كنت تجلسين بجانبني تحت النجوم وتخبريني أنني لست مضطراً إلى أن أكون قوياً طوال الوقت. وأحبتك حتى في الأيام التي كنت تمرين فيها بجانبني دون أن تنظري إلي.

كنت أقول لنفسي إنني سأخبرك غداً. ثم يأتي الغد، فأخاف أن أخسر، وأختار الصمت. لم أفهم يوماً كيف يستطيع رجل أن يقف أمام جيش كامل وال يخاف، ثم يرتجف من فكرة أن يقول لفتاة: واحدة أنت تعنين لي كل شيء. ربما لم يكن خوفي من رفضك، بل من أن أسمع منك أنني تأخرت.

واليوم، حين رأيتك في ثوب زفافك، فهمت أن بعض الأبواب ال تغلق ألنا ال نستطيع الوصول إليها، بل ألنا ننتظر لطويلاً حتى يصبح الوصول لمستحيًا.

ال تلومي نفسك. ال أكتب لك ألجعلك تحملين ذنبي، وال أطلب منك أن تتذكري لرجاً لم يستطع الاعتراف بحبه في الوقت المناسب. أنت ال تدينين لي بشيء، يا إيالرا. ال حبا، وال وعداً، وال حتى دمة.

لكن اسمحي لي باعتراف أخير. في كل مرة كنت أعود فيها من الحرب، كنت أبحث عنك قبل أن أبحث عن الملك. وفي كل مرة كنت أخسر فيها شيئاً، كنت أقول لنفسي إنني سأتحمل، ما دمت أستطيع العودة إلى تلك الشرفة ورؤيتك.

كنت أظن أنني أريد أن أصبح أعظم فرسان المملكة كي أكون جديراً بك. لكنني أدركت متأخراً أنني كنت أريد فقط أن أكون الرجل الذي تختارينه أنت، ال

الرجل الذي يختاره الجميع.

إذا كنت سعيدة، فأرجوك أن تحافظي على سعادتك. ال تسمح لي لذكرى رجل صامت بأن تسرق منك ما تستحقينه من حياة. أما أنا، فقد تعبت يا إيالرا. تعبت من الحروب، ومن الخوف، ومن محاولة أن أكون الشخص الذي يحتاجه الجميع. وتعبت من الوقوف أمامك وأنا أحمل في صدري كالماء يكفي لملء ألف ليلة، ثم أعود إلى غرفتي دون أن أقول شيئاً.

اليوم، وأنا أكتب إليك، أتذكر تلك اللوحة التي رسمتها حين كنا صغيرين. كنت أظن أن فارس الزمن ال يخاف شيئاً، ثم رأيت عينيه الخضراوين واكتشفت أن حتى الأبطال يحملون أسراراً ال يعرفها أحد. ربما كنت أريد أن أكون مثله. وربما كنت أريد أن أكون بطلك أنت. لكنني لم أكن فارساً في حكايتك، أليس كذلك؟ ال بأس. يكفيني أنني كنت، ولو لبعض الوقت، جزءاً من أيامك. وداعاً يا إيالرا. إن تذكرتني يوماً، فال تذكريني وأنا أرحل. تذكريني لطفاً يركض في الحديقة، وفتي يرسم فارساً أسطورياً، لورجاً كان يضحك من سخافة صديقه حتى تنهمر دموعه. تذكريني حياً.

لوسين.

الرجل الذي أحبك، ولم يطلب منك يوماً أن تحبيه. انخفضت الرسالة بين يديها، لكنها لم تسقط. ظلت إيالرا ممسكة بها، تحديق في الكلمات كما لو أنها تقرأها للهرة الأولى. لم تبك في البداية. جلست على الكرسي الذي كان لوسين يفضلها، وحدقت في الفراغ، كأن عقلها يرفض أن يسمح لقلها بفهم ما حدث. ثم رفعت يدها إلى فمها.

«لا...»

خرجت الكلمة هامسة.

«ال لوسين...»

لم تستطع أن تكمل. عادت إلى الرسالة، ومررت عينيها على السطور التي كتب فيها عن صمته وخوفه. حاولت أن تستعيد السنوات الماضية، وأن تجد جواباً عن سؤال لم تفكر فيه بوضوح من قبل. لماذا كان غيابه يؤلمها أحياناً أكثر مما توقعت؟ ولماذا كانت تشعر بالرياح حين يعود من الحرب، حتى قبل أن تراه؟ وهل كان خوفها من القتراب منه خوفاً من خسارة الصداقة وحدها، أم أنها كانت تخشى اكتشاف حقيقة لم تكن مستعدة لمواجهتها؟ لم تجد جواباً.

«كنت أظن أنك ال تراني إل أختاً...»

خرجت الكلمات من بين شفتيها، مترددة، كأنها تحاول إقناع نفسها بها.

«أو ربما كنت أخشى أن أعرف أنك ال تراني كذلك..»

انحنت، وضغطت الرسالة إلى صدرها. لم تعرف إن كان صمتها قد حماها يوماً أم أنه أبعد عنها شيئاً كان يمكن أن يتغير لو امتلك أحدهما الشجاعة في الوقت المناسب. رفعت رأسها نحو لوحة فارس الزمن، ومسحت دموعها عن عيني الرجل المرسوم، كأنها تستطيع أن تعيد إلى الرسم شيئاً مما فقدته.

«أنت الأحق...»

ارتجف صوتها.

«أنت الأحق أنك لم تقل شيئاً، وأنا...»

توقفت. لم تستطع أن تصف نفسها بالحمقاء، ولم تستطع أن تدافع عن صمتها أيضاً. احتضنت اللوحة والرسالة معاً، وبكت حتى خارت قواها. لم تكن تعرف كيف تتقبل أن الرجل الذي منحته نظرة واحدة في آخر لحظاته قد رحل، تاركاً وراءه كلمات لم تعد قادرة على الإجابة عنها. وفي النهاية، همست:

«كنت تستحق أكثر من هذا يا لوسين...»

ثم سكنت، لطوياً عاجزة عن تحديد ما الذي كانت تمنى لو أنها منحته إياه، أو ما

الذي كانت تتمنى لو أنه طلبه منها.

دوى الانفجار من الجهة الأخرى للقصر. اهتزت النوافذ، وارتفعت سحابة من الدخان فوق جناح الأمير. تالشت الموسيقى، وتحولت الحفلات إلى صراخ وركض، واندفع الحرس نحو مصدر الصوت. كان الأمير قد دخل غرفته قبل لحظات، ثم دوى الانفجار، فانهار جزء من الجناح واشتعلت النيران خلف الأبواب المحطمة. حاول رجال الإطفاء السيطرة على الحريق، بينما راح آخرون يفتشون عن ناجين. وبعد وقت طويل، لم يبق مجال للشك في أن الأمير قد مات. لم يكن ذلك حادثاً. كانت الغرفة قد تحولت إلى نخ. وفي أثناء التحقيق، اكتشف الحرس جثتي الحارسين اللذين كانا يعملان لحساب الأمير. أما الملك، فعاد إلى مكتبه بخطوات متثاقلة، وكأن كل خطوة تضيف عاماً آخر إلى عمره. وجد رسالة فوق الطاولة. كانت ملطخة بالدماء. عرف الخط قبل أن يقرأ السم. جلس ببطء، وفتح الورقة.

إلى الملك ماركوس والمملكة إيلانا، شكراً لكما على كل شيء. شكراً ألتكما انتشلتما من بين الأنقاض، ومنحتماني اسماً وبيتاً وعائلة. لم أشعريوماً أنني غريب في قصركما، حتى حين لم أفهم سبب قسوة التدريب، وحتى حين تمنيت أن أعيش حياة الأطفال الآخرين. لقد منحتماني أكثر مما كان يحق لطفل مثلي أن يحلم به.

لكنني فشلت في حماية من أحببتهم. أعترف بأنني قتلت الأمير، وأنني قتلت الحارسين اللذين كانا يعملان لحسابه. وقد أعددت الفخ في غرفته، وأخذت المتفجرات من المخزن. ستجدون في سجلات المستودع ما يوضح ما استخدم، كما ستجدون ما يربط الأمير بالجزرة التي وقعت في الغابة.

لم يكن رجالي خونة. كانوا ضحايا مؤامرة، وأرجو أَل تُحْمَلُوا عائلاتهم ثمن ما حدث. أما ما فعلته، فسأتحمل مسؤوليته وحدي. أرجو أن تُدفن جثث جنود الكتيبة معاً، وأن تُسَلَّم متعلقاتهم إلى عائلاتهم. أَل أريد أن يُنسَى أحد منهم لمجرد أنه لم يكن لجنراً أو. لنبياً لقد ماتوا وهم يثقون بأوامر المملكة، وكان أقل ما يستحقونه أن يعودوا إلى بيوتهم بكرامة.

أما آرثر، فادفنه إلى جوارِي إن أمكن. لقد كان أخي الذي لم تلده أُمي، وصديقي الذي جعل أثقل الأيام قابلةً لاحتمال. وإن وصلت هذه الرسالة إليك، فاعلمها أنني لم أعد أملك ما يكفي من القوة ألتنظر عدالة البشر. ساحباني. لوسين. لم يستطع الملك إكمال الرسالة واقفاً. انحنى فوق المكتب وغطى وجهه بيديه. كان قد فقد ابنه مرتين؛ مرة حين اختار طريق الخيانة، ومرة حين سقط جسد لوسين أمامه، ذلك الطفل الذي وجدته بين الأتقاض وظن أنه يستطيع أن يمنحه لمستقبلاً أفضل من الماضي الذي نجا منه. والآن، كان عليه أن يدفن الثنين.

في الأيام التالية، أقيمت جنازة جماعية لجنود الكتيبة. اصطف الجنود الناجون من الوحدات الأخرى على جانبي الطريق، وانحنت الرايات السوداء فوق التواييت. لم تُطلق المدافع لاحتفاءً بالنصر، بل أُطلقت طلقات تكريم متباعدة، ارتج صداها فوق السهول. دُفن الرجال بأسمائهم ورتبهم، واحداً بعد آخر. حضر أهلهم، يحملون صوراً ورسائل وأشياء صغيرة تركوها خلفهم. كانت بعض الأمهات يصرخن بأسماء أبنائهن، بينما وقف آخرون عاجزين عن البكاء، كأن الحزن استهلك كل ما فيهم قبل أن تبدأ الجنازة. أما آرثر، فدُفن إلى جوار لوسين. وُضع سيفه فوق قبره، ومعه رسالة قصيرة بخط لوسين وجدها الملك في متاعه:

إلى أخي الذي سبقني إلى الطريق، احتفظ بمكاني قربك. أعرف أنك ستشتكي إن تأخرت عليك.

لوسين.

لم يعرف أحد متى كتب لوسين الرسالة. ضمها الملك إلى صدره، لطوياً ثم وضعها فوق القبر. أما لوسين، فحملوه إلى مثواه في نعش مغطى براية المملكة. لم ترفع الخوذة عن وجهه أمام الجموع، ولم ير سوى مالحه الهادئة حين ودعه الملك في غرفة الوداع الأخيرة. كانت إيالرا هناك. لم تضع وردة على نعشه، ولم تقل شيئاً. اكتفت بأن وضعت لوحة فارس الزمن بجانبه، ثم انحنت وهمست:

«لن أنساك.»

لكن حين ابتعد الجميع، بقيت واقفة أمام القبر، تحديق في التراب الجديد. كانت تعرف أنها ستعيش، وستضحك يوماً، وربما تتعلم كيف تنام دون أن ترى وجهه في أحلامها. لكنها عرفت أيضاً أن هناك جزءاً من قلبها سيظل جالساً في تلك الشرفة، ينتظر لرجاً لن يعود. ولم تستطع أن تعرف إن كانت تنتظر عودته لأنه كان جزءاً من حياتها ال يمكن استبداله، أم ألن كلمات رسالته تركت في داخلها لسوياً لم يعد هناك من يجيب عنه.

في تلك الليلة، بعد أن هدأت أصوات الجنازات وانطفأت المشاعل في القصر، تحركت الريح بين أشجار الحديقة. اهتزت أغصان شجرة قديمة قرب الشرفة، وسقطت منها ورقة جافة على المقعد الذي كان لوسين يجلس عليه. لم يكن هناك أحد ليراه. ولم يكن هناك أحد لسمع الصوت الخافت الذي بدا كأنه همسة بعيدة، آتية من زمن ال ينتمي إلى هذه المملكة:

«ليس بعد...»

ثم عاد الصمت. وبقيت السماء، كما كانت يوم رحيل لوسين، ملبدة بالسحب الرمادية.

الفصل السابع: عذراً، من سمح لهذا الرجل بالدخول؟

لم يكن هناك ضوء.

وال ظالم.

وال سماء تتسع للنجوم، وال أرض تحمل الخطوات، وال حتى نسمة هواء عابرة تذكر المرء بأنه كان يوماً جزءاً من عالم حي.

كان هناك فراغ فحسب. فراغ ال نهاية له، يمتد في جميع الاتجاهات، كصفحة بيضاء نسي أحدهم أن يكتب عليها شيئاً، أو ككتاب ضخّم انتزعت منه كل صفحاته، ولم يبق منه سوى الغالف.

وفي ذلك الاشيء، كانت روح تطفو بال وجهة.

لوسين.

لم يعد يحمل سيفاً، وال يرتدي درعاً، ولم تعد جروحه تؤلمه. لم يكن يشعر بالبرد أو الحرارة، ولم يعد بحاجة إلى التنفس. ومع ذلك، ظل يشعر بشيء أثقل من كل الجروح التي أصابته في حياته.

الندم.

كان يطفو ببطء، ويداه تتدليان إلى جانبيه، بينما تتناثر حوله ذكريات حياته كصور منعكسة على سطح ماء مضطرب.

رأى الطفل الذي وجدته الملك ماركوس بين الأنقاض. رأى نفسه يركض في حدائق القصر، ثم رأى الفتى الذي كان يحمل سيفاً خشبياً أكبر من ذراعه، ويصرخ معلناً أنه سيصبح أعظم فرسان المملكة.

ورأى آرثر.

ضحكته المزعجة، تعليقاته الغبية، ابتسامته التي كانت تظهر دائماً في أسوأ الأوقات الممكنة، حتى حين كان لوسين يوشك على خنقه.

ثم رأى وجهه الأخير.

«أتمنى.. في حياة.. أخرى.. أن نلتقي يا صديقي.

أغمض لوسين عينيه.

«حياة جيدة نوعاً ما، على ما أظن.»

تردد صوته في الفراغ، لكنه لم يجد أذناً تسمعه.

«لدي عائلة تبنتني، وحقت ما أردته، وأصبحت... لجنراً وحتى إنني كدت أتزوج المرأة التي أحببتها.»

توقف لقليلاً.

«حسناً لم أقرب من الزواج، لأصلاً لكن التفاصيل الصغيرة الـ تههم.»

حاول الضحك، فلم يخرج منه سوى زفير خافت.

«ومع ذلك.. أشعر بأن كل شيء ضاع في مهب الريح.»

كان قد عاش ليصبح فارساً، فصار سالحاً في أيدي الملوك. عاش ليحمي من أحب، فأنهى به الأمر عاجزاً عن إنقاذ أقرب أصدقائه. وانتظر لطوياً ليعترف بمشاعره، حتى أصبحت كلماته الأخيرة رسالة إلى امرأة لن يستطيع احتضانها أبداً.

«لو مُنحت فرصة ثانية...»

رفع رأسه نحو الفراغ الذي ال يملك رأساً وال قاعاً.

«لو استطعت أن أعيش مرة أخرى، لفعلت أشياء كثيرة بطريقة مختلفة. كنت

سأقول ما أشعر به لبدأً من الختباء خلف صمتي. كنت

سأقضي وقتاً أطول مع .آرثر.. وربما كنت سأضربه أقل.»
صمت لحظة.

«لا كذبة. كنت سأضربه بالمقدار نفسه.»

للمرة الأولى، ظهرت على وجهه ابتسامة حقيقية، لكنها اختفت سريعاً.
«أريد فقط فرصة أخرى.»

ونجأة...

اهتز الفراغ.

لم يكن اهتزازاً يمكن الشعور به بالجسد، بل اضطراباً أصاب الوجود نفسه، كأن يداً عمالقة أمسكت بأطراف العالم وراحت ترجمه لتوقظ شيئاً نائماً في أعماقه.
انشق السكون عن ضوء أزرق.

لم يكن الضوء ناعماً أو مريحاً، بل ناراً زرقاء متوهجة، تلتف حول هيئة طويلة القامة ظهرت وسط الفراغ. اشتعلت ألسنة اللهب على كتفيها وذراعيها، وانسابت فوق جسدها دون أن تحرق شيئاً، بينما كانت مالمحها تتشكل وتختفي داخل وهج متغير.
ومع ذلك، كان أكثر ما أثار الحيرة في مظهرها هو مالبسها.

بذلة أعمال سوداء أنيقة، وربطة عنق مرتبة، وحذاء المع يصلح الاجتماع مهم في شركة كبرى، ال للظهور أمام روح ميتة في مكان ال وجود فيه للشركات لأصاً.
وقف الكيان أمام لوسين، وعدّل أكمام سترته ببرود، ثم قال:

«لأهاً أيها الفاني الشجاع. يجب أن أعترف بأن حياتك، مقارنة بحياة نظرائك في خطوط الزمن الأخرى، كانت مثيرة لاهتمام.

بصراحة، لديك موهبة نادرة في تحويل أبسط المواقف إلى كوارث كونية.»

حدق لوسين فيه.

ثم ضيق عينيه.

«...انتظر هل أنت روح الزمن؟»

توقف الكيان عن تعديل ربطة عنقه.

ساد الصمت.

حتى النيران الزرقاء حوله بدت وكأنها توقفت عن الاشتعال للحظة.

«...عفواً؟»

رفع لوسين حاجبه.

«روح الزمن. الكيان الذي يتحكم في الخطوط الزمنية، ويراقب الأحداث التي تتجاوز

حدود العالم العادي.»

ظل الكيان ينظر إليه ، لطوياً ثم مال برأسه لقليلًا.

«من أخبرك بهذا؟»

«ال أحد.»

«إذا كيف عرفت؟»

«فارس الزمن.»

للمرة الأولى، انطفأت ابتسامة الكيان تمامًا.

تابع لوسين، وكأنه يشرح مسألة بسيطة في قاعة الدرس:

«شككت في وجودك منذ ظهور فارس الزمن في الأكاديمية. كانت هناك أمور ال

تتفق مع التاريخ، خصوصاً أن كل الشهادات تصف

أسلوبه وحركاته وسحره بالطريقة نفسها، رغم الفارق الهائل بين الأزمنة. ثم ربطت ذلك بحادثة مملكة الظلال، وبدأت أشك في أن هناك شيئاً يتجاوز مجرد الخلود.»

صمت ، ل قليلاً ثم أضاف:

«وبصراحة لم أتوقع أن يكون الكيان المسؤول عن كل ذلك مرتدياً بذلة أعمال.»

حدق الكيان في مالبسه، ثم عاد ينظر إلى لوسين.

«، لأوأ هذه بذلة ممتازة. ثانياً، ال عالقة لألناقة بالخلود. وثالثاً...»

رفع إصبعه.

«لقد أبهرتني.»

تراجعت النيران الزرقاء ، ل قليلاً ثم عادت لالشتعال.

«لم أتوقع من أيِّ فان أن يكشف هويتي بهذه السرعة. كنت أظن أنني سأضطر إلى إلقاء خطاب غامض مدته ثالث ساعات، يتخلله

برق وموسيقى ملحمية، وربما ظهور طائر أسطوري في الخلفية.»

نظر لوسين إلى الفراغ خلفه.

«أين الطائر؟»

«ال تختبر صبري.»

«كنت أسأل فقط.»

تنهد الكيان، ثم شبك يديه خلف ظهره.

«على أي حال، كنت أنوي إعادتك إلى الماضي، ومنحك فرصة أخرى في خط زمني مختلف. يبدو أن حياتك لم تنته بالطريقة التي

كان ينبغي لها أن تنتهي، وأنا أرى أنك تستحق أن تعيش تجربة أخرى.»

اتسعت عينا لوسين.

«أتعني أنني سأعود إلى الحياة؟»

«نعم.»

«بجسدي؟»

«ربما.»

«وبذكرياتي؟»

«هذا يعتمد.»

«وهل سأتمكن من —»

«يا بني، دعني أنهي جملة واحدة في حياتي حتى الموتى أصبحوا يقاطعونني الآن!»
أغلق لوسين فمه فوراً.

رفع الكيان ذقنه بشيء من العتزاز، ثم قال:

«ستحصل على فرصة جديدة، لكن ليس في الخط الزمني نفسه. ال يمكنني أن
أعدك بأن كل شيء سيكون كما تريد. الحياة الثانية

ليست نسخة محسنة من الأولى، وال تأتي مع دليل استخدام أو ضمان لمدة عشر
سنوات.»

تردد لوسين.

كان يريد أن يسأل عن آرثر، وعن إيالرا، وعن الملك والمملكة، وعن مصير المملكة
بعد رحيله. أراد أن يعرف إن كانت ذكرياته ستبقى، وإن كان يستطيع إصلاح شيء
مما كسره الزمن.

لكنه أدرك أن الكيان أمامه ليس شخصاً يمكن التفاوض معه بسهولة.

لذلك اختار لسؤاً واحداً.

«سيدي أيها الكيان الزمني .المبجل.. هل فارس الزمن هو الشخص نفسه في كل تلك الأزمنة؟»

التفت الكيان إليه ببطء.

هذه المرة، لم يبد مندهشاً.

بل بدا مستمتعاً.

«بما أنك أظهرت قدرًا ملحوظًا من الذكاء، وبما أنني معجب بك، فسأجيبك.»

اقترب منه خطوة، واشتعلت النيران الزرقاء حول كتفيه.

«نعم فارس الزمن شخص واحد.»

توقف لوسين عن الحركة.

أكل الكيان:

«وهو...»

ثم رفع إصبعه، وطرق به الهواء.

طَق!

اختفى لوسين.

لم يترك وراءه سوى دوامة صغيرة من الضوء، تالشت في أقل من ثانية.

وقف الكيان وحده في الفراغ، ونظر إلى المكان الذي كان لوسين يطفو فيه.

«يا له من فتى مثير لاهتمام.»

ثم التفت إلى شيء لم يكن موجوداً قبل لحظات.

شيء يقع خارج الفراغ، وخارج الزمن، وخارج حدود الحكاية نفسها.

شيء اسمه...

الراوي.

الراوي وهكذا، بدأت الخطة الكبرى لكيان يتجاوز حدود الزمان والمكان، كيان يحمل أسراراً ال يمكن للعقل البشري إدراكها، ويخفي بين طيات وجوده مخططاً قد يغير مصير جميع الخطوط الزمنية...

روح: الزمن أرحم عمي!

الراوي عفواً؟

روح: الزمن أتريد إفساد المتعة على الجميع؟ الرجل اختفى للتو، وأنت بدأت تكشف الأسرار هل تعلم كم استغرق مني إقناع المؤلف لبأّ يجعلني أظهر بمالبس النوم؟

الراوي أنت تعرف أنك ستقع في مشكالت إن علم بك المؤلف. توقف الكيان لحظة.

ثم نظر إلى جهة غير محددة، ووضع يده على ذقنه متظاهراً بالتفكير.

روح: الزمن أرحمني. لن يعرف إن توقفت عن الكلام، أليس كذلك؟

الراوي أنا الراوي. وظيفتي أن أصف الأحداث.

روح: الزمن ووظيفتي أن أجعل حياتك بأسة إن أزعجتني.

الراوي هذه إساءة واضحة الستقاللية السرد.

روح: الزمن وهذه جملة واضحة ستجعل القراء ينامون. نحن متعادالن.

تهند الراوي تهدياً ، لطوياً ذلك النوع من التهديدات الذي يصدر عن موظف اكتشف للتو أن مديره سيبقي في منصبه إلى الأبد.

أما روح الزمن، فقد استدار نحو الفراغ، ورفع ذراعه بتحية مبالغ فيها.
روح: الزمن والآن، لأهاً بكم أيها القراء! الأعزاء نعم، أنتم. أصحاب العيون التي
قضت وقتاً لطوياً في قراءة هذه السطور لبدأً من النوم أو الدراسة أو القيام بأي
نشاط مفيد للحياة البشرية.

اقترب منكم خطوة، أو هكذا بدا، ألن القتراب من القارئ مسألة معقدة حين
يكون القارئ خارج العالم الذي تتحرك فيه الشخصيات.
روح: الزمن أعترف بأنني كنت أنتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل. فرصة التحدث
إليكم مباشرة، دون أن يتدخل هذا الرجل الذي يسمي نفسه راوياً.
الراوي ألني الراوي لفعاً.

روح: الزمن ال تقاطعني. أنت تفسد هييتي.
الراوي أي هيبة؟ أنت لهب أزرق يرتدي بدلة موظف مبيعات.
نظر الكيان إلى مالبسه، ثم أعاد ترتيب ربطة عنقه.
روح: الزمن بدلة أعمال راقية، أيها الجاهل. هناك فرق بين الأناقة والجهل، ويبدو
أنك قررت أن تجمع الاثنين في شخصية واحدة.
ثم عاد إلى مخاطبة القراء.

روح: الزمن على أي حال، أتمنى أن تكون هييتي قد أعجبتكم. آه، نسيت أنني ما
زلت مجرد حروف وكلمات على! صفحة يا لها من إهانة وجودية. كيان يتحكم في
خطوط الزمن كلها، وال يستطيع حتى أن يرفع حاجبه دون أن يكتب: المؤلف
«رفع حاجبه».

رفع حاجبه.
الراوي فعلت ذلك للتو.

روح: الزمن! أعرف وهذا ما أقصده! اقترب ، ل قلياً وخفض صوته كما لو كان يشارككم سرّاً بالغ الخطورة.

روح: الزمن إن كان بينكم رسام موهوب، فأنا أرحب برؤية تصوركم لهيئتي. نار زرقاء، قامة طويلة، بذلة أعمال، حضور مهيب.. أريد لعماً فنياً يليق بكيان مثلي. توقف لحظة، ثم أضاف بجدية مصطنعة:

روح: الزمن وإن لم تعجبني الرسمه، فقد أمحو الخط الزمني الذي رُسمت فيه. الراوي هذا تهديد للقراء!

روح: الزمن هذا نقد في صارم.

الراوي ال يمكنك محو الخطوط الزمنية لمجرد أن رسمه لم تعجبك!

روح: الزمن أيمكنك إثبات ذلك؟

ساد صمت قصير.

الراوي. سأراجع.. العقد.

ضحك الكيان، ثم أشار بإصبعه نحو القارئ.

روح: الزمن وأنت، نعم أنت، الذي يقرأ الآن ويتسم رغماً عنه، ال تتظاهر بأنك لم تسمعي. دعمك للمؤلف مهم، سواء بمتابعة الرواية أو ترك تعليق أو مشاركة رأيك. صدقي، كتابة هذه الفوضى ليست سهلة، خصوصاً حين أكون أنا أحد شخصياتها.

الراوي أنت شخصية مزعجة.

روح: الزمن وأنا من القلة التي تحطم الجدار الرابع، لذا احترم إنجازاتي.

الراوي الجدار الرابع ليس إنجازاً. إنه مجرد اصطالح سردي.

روح: الزمن وهذا بالضبط ما يقوله شخص لم يستطع يوماً الخروج من الصفحة.

ثم التفت الكيان فجأة، كأنه تذكر شيئاً بالغ الأهمية.

روح: الزمن بالمناسبة، أنت أيها القارئة ذات النظارات، ما بك؟ لماذا تنظرين إلي بهذه الصدمة؟ هل توقعت أن أكون أقصر؟ أم أنك منزجة ألني لم أظهر على هيئة أمير وسيم بشعر فضي؟
توقف، ثم هز رأسه.

روح: الزمن ال تجيبي. ال أريد الدخول في نقاشات ال نهائية عن معايير الجمال.

:الراوي أنت تدرك أنك تتحدث إلى قراء قد ال يرتدون نظارات أصال؟

روح: الزمن التفاصيل، يا صديقي. التفاصيل هي التي تصنع الأدب. :الراوي أنت ال تعرف حتى ما إذا كانت هذه الجملة صحيحة.

روح: الزمن وأنا ال أعرف لماذا ما زلت أسمح لك بالتحدث.

أدار الكيان ظهره، وبدأ يرسم دائرة من النار الزرقاء في الفراغ. ظهرت داخلها صور متقطعة لعوالم أخرى، ومدن غريبة، ووجوه لم يكن من المفترض أن تظهر في هذه الحكاية.

توقف أمام إحدى الصور.

روح: الزمن. هممم.. هذا غريب.

:الراوي ماذا؟

روح: الزمن يبدو أن هناك خطأ في أحد الخطوط الزمنية. أظن أنني سأزور عالمي الخاص بعالم الأصدقاء غير الشرعيين. يبدو أن أحدهم عبث بشيء لم يكن ينبغي له لمسه.

:الراوي هل تقصد أنك ستغادر الآن؟

روح: الزمن وهل تريدني أن أبقى؟ أرى أنك بدأت تستمتع بوجودي.

:الراوي أفضل أن أرى أحداث موت بطل مأساوي على أن أتحمل خمس دقائق أخرى من حديثك.

روح: الزمن ذوقك الأدبي يحتاج إلى إعادة تأهيل.
ثم رفع إصبعه فجأة، كأنه تذكر أمراً آخر.

روح: الزمن آه، قبل أن أذهب نعم، أنا الكيان نفسه الذي ظهر لداركن في رواية حياتي بين العوالم والأبعاد. ال داعي للتصفيق، أعرف أن ظهوري هنا حدث تاريخي.

:الراوي أنت تدرك أن الروائيتين مختلفتان؟

روح: الزمن بالطبع. أنا مختلف عن قوانينكم الصغيرة. أتنقل حيث أشاء، وأظهر متى أشاء، وأحدث إلى من أشاء.

:الراوي وتفسد الحكمة متى شئت.

روح: الزمن هذه موهبة إضافية.

استدار الكيان نحو الراوي، ووضع يده على كتفه بحركة ودية مبالغ فيها.

روح: الزمن والآن، يا صديقي، أرجوك أن تصف خروجي بطريقة تليق بعظمتي. أريد مشهداً أسطورياً، ألسنة نار، موسيقى ملحمية، وربما بعض الكلمات الالتيانية الغامضة.

:الراوي سأصف خروجك ببساطة.

روح: الزمن ماذا؟!

:الراوي ستصفق، وتختفي. حرق الكيان فيه بذهول مصطنع، ثم ابتسم ابتسامة عريضة.

روح: الزمن تعرف؟ لو لم تكن مجرد صوت بال جسد، لوجدت لك وظيفة ممتازة

في قسم التعذيب الأبدى.

:الراوي وكيف سأصف حركاتك إن أصبحت أنا عرضاً مسرحياً؟

توقف الكيان، ونظر إليه ببطء.

روح: الزمن أنت تعرف الإجابة.

:الراوي ال، ال أعرف.

روح: الزمن حينها ستصبح بال فائدة، صحيح؟

:الراوي: ...

روح: الزمن !هاه أخيراً، صمت الراوي!

رفع الكيان يديه، واشتعلت النيران الزرقاء حوله حتى غمر ضوءها الفراغ كله.

روح: الزمن إلى اللقاء أيها !القراء ال تنسوا دعم المؤلف، وال تنسوا أنني أراقبكم من خارج الزمن!

:الراوي ال تراقب أحداً، أنت شخصية خيالية!

روح: الزمن قل هذا مرة أخرى، وسأجعلك تروي رواية كاملة عن حياة ملققة.

ثم صفق بيديه.

صفقة واحدة.

انطفأ الضوء.

اختفت النيران.

اختفى الكيان.

واختفى الفراغ نفسه للحظة، كما لو أن أحدهم أطفأ شاشة العالم.

سواد تام.

ال أصوات.

ال صور.

ال راوي. وال حتى كان أزرق مزج يرتدي بذلة أعمال.

ثم ظهرت عبارة صغيرة في وسط السواد:

يتبع...

وبجانها، بخط أصغر بكثير:

«أخبرتكم أنني سأعود.»

الفصل الثامن: دفء لم أعرفه من قبل

لم أكن أعلم أن الموت يمكن أن يكون بداية لسقوط جديد.
كنت أهبط.

أهبط من مكان ال أعرف أين يقع، عبر ظالم شاسع ال نهاية له، وكأن أحدهم قرر أن يقذف روحي من أعلى السماء ثم يتركها لتكتشف وحدها متى ستصطدم بالأرض.

لم يكن حولي سوى الفراغ، ولم تكن لدي يد أتشبث بها، وال أرض أستعد المستقبلها، وال حتى جسد أستطيع أن أصرخ من خالته احتجاجاً على هذا العبث.
ومع ذلك، كان لدي متسع من الوقت أفكر في أمر واحد.
تلك الرسالة.

آه، تلك الرسالة العظيمة التي تركتها لألمير أدريان قبل أن أجبر غرفته وأرسل ذلك الوجد إلى الجحيم الذي يستحقه.

أتعلمون؟ لقد فكرت لطوياً فيما ينبغي أن أكتبه له. رسالة مليئة بالحق؟ اعتراف أخير؟ كلمات تشرح له لماذا انتهت حياته على يد الرجل الذي حاول قتله؟
لا.

لم أكن ألتحقه شرف الحصول على خطاب أخير من رجل مثلي.
لذلك، رسمت له رسماً كرتونياً.

نعم، رسماً كرتونياً سخيفاً لي أنا وآرثر، نقف فيه جنباً إلى جنب ونرفع إصبعنا الأوسط في وجهه، بابتسامتين عريضتين ال تليقان إل بأكثر شخصين وقاحة في

المملكة.

وأسفل الرسم كتبت بخط واضح:

«فلتمت يا وبش.»

أجل.

كانت تلك تحفة فنية تستحق أن تُعلّق في أعظم متاحف المملكة، لو أن صاحبها لم يمت قبل أن يراها بنفسه.

آه، آرثر.. ليتك كنت هناك لترى وجهه.

ربما كنت ستضحك حتى تسقط أرضاً، ثم تنهض لتخبرني بأنني أخيراً كتبت شيئاً يليق بمستواي الفكري المتواضع.

أو ربما كنت ستقول إن الرسم سيئ، وإنني أبدو فيه أقبح مما أنا عليه في الواقع. اللعنة عليك أيضاً يا آرثر.

حتى بعد موتك، ما زلت أجد طريقة ألّتجادل معك.

ابتسمت، أو ظننت أنني ابتسمت. لم أعد أملك وجهاً التأكد من ذلك.

واصلت السقوط، وبدأت الأفكار تتالشى من حولي، كأن الظالم يبتلعها واحدة تلو الأخرى. حاولت أن أستحضر صورة وجوه الذين تركتهم خلفي؛ الملك ماركوس، الملكة إيلانا، إيالرا..

إيالرا.

توقفت ابتسامتي المتخيلة عند اسمها.

هل كانت بخير؟

هل استطاعت أن تواصل حياتها بعد رحيلي؟

هل وضعت رسالتي قرب الرسم الذي رسمته لفارس الزمن؟ أم أنها ما زالت تجلس في شرفتها، تحتسي الشاي وحدها، وتنتظر شخصاً لن يعود؟
لم أجد إجابة.

وللمرة الأولى منذ وقت طويل، تمنيت لو أنني أستطيع العودة.
ليس ألتقم، وال أقتل أدريان مرة أخرى، وال ألغير ما حدث في الغابة.
كنت أريد فقط أن أراها مرة أخيرة.
أن أخبرها بأنني أحببتها.
أن أقول لها إنني لم أندم على كل ما عشته معها، حتى تلك اللحظات التي جعلتني أشعر بأن قلبي يسحق ببطء.
لكن الأوان كان قد فات.
أو هكذا ظننت.

جفاة، شعرت بشيء يتغير. لم يكن صوتاً، وال ضوءاً، وال يداً امتدت إلي من أعماق الظالم.
كان إحساساً غريباً، كأن العالم نفسه انطوى على ذاته، ثم أعاد فتح صفحاته على شيء لم أعرفه من قبل.
حاولت أن أرفع رأسي.
لم أجد رأساً أرفعه.
حاولت أن أفتح عيني.
ولم أرسو السواد.
ثم...

صرخة.

لم أفهم في البداية من أين جاءت.

كانت حادة، مرتجفة، مليئة باليأس، وكأن صاحبها يطلب النجدة من عالم ال يفهم لغته.

وبعد لحظة أدركت الحقيقة التي جعلتني أتمنى لو أنني بقيت ميتاً.

كانت صرختي أنا.

لم أستطع التحكم في جسدي.

كانت أطرافي تتحرك بعشوائية، وذراعي الصغيرتان تتلوّحان في الهواء بال هدف، بينما تنقبض أصابعي وتنبسط كأنها تحاول الإمساك بشيء ال تراه.

شعرت بحرقه في حلقي، وبألم غريب يمتد من صدري إلى في. كنت أصرخ، أو أبكي، أو أفعل الأمرين معاً، ولم أستطع التوقف مهما حاولت.

ما الذي يحدث لي؟

أين أنا؟

لماذا ال أستطيع تحريك جسدي كما أريد؟

حاولت أن أتكلم، أن أقول أي شيء، أن ألعن روح الزمن وأطالب ذلك الوغد بتفسير ما فعله بي.

لكن ما خرج من في كان مجرد بكاء متقطع، تتخلله شهقات صغيرة ال تشبهني في شيء.

أعدت المحاولة.

«...آآآه!»

يا إلهي.

هل هذا صوتي حقاً؟

أين ذهب نبرة صوتي؟ أين ذهب قوتي؟ أين ذهب يداي اللتان حملتا السيف
وقاتلتا حتى آخر لحظة من حياتي؟

لم أعد أملك حتى القدرة على التحكم في أصابعي.

بدأت أستوعب الحقيقة ببطء، حقيقة كانت سخيفة إلى درجة أنني لم أستطع تقبلها.
لقد عدت إلى الحياة.

لكنني لم أعد إلى جسدي.

كنت رضيعاً.

رضيعاً عاجزاً ال يستطيع حتى أن يوقف بكاءه بنفسه.

لو كان بإمكانني البكاء من الإحباط وحده، لفعلت.

ولحظة...

كنت أبكي بالفعل.

يا للسخرية.

بعد كل ما عشته، وبعد كل الدماء التي رأيته، وبعد أن مت وأنا أظن أنني دفنت
آخر ما تبقى لي من الضعف، ها أنا ذا أبدأ حياتي الجديدة بالصراخ كأن العالم
ارتكب جريمة في حقّي.

حسناً، العالم ارتكب جريمة لفعل.

وكان اسم المجرم روح الزمن.

أقسم أنني إن رأيت وجهه مرة أخرى، فسأجد طريقة ألجعله يندم على اليوم الذي

قرر فيه العبث بمصيري.

لكن قبل أن أتمكن من مواصلة شتائي الداخلية، اخترق الضجيج من حولي
صوت آخر.

صوت ناعم.

هادئ.

مرهق، لكنه يحمل في نبرته حناناً جعلني أتوقف للحظة، رغم أن جسدي الصغير
واصل الارتجاف.

«اهدأ يا .صغيري.. ال بأس، أنا هنا.»

لم أفهم الكلمات كلها في البداية، لكنني فهمت نبرة الصوت. كانت قريبة.
قريبة جداً.

ثم شعرت يدين ترفعانني بحذر.

كان الارتفاع بسيطاً، ومع ذلك بدا لي وكأن العالم كله يتحرك من حولي. انقلبت
الأصوات، وتغير اتجاه الضوء، والمس جسدي الصغير دفء لم أعرف مصدره
بعد.

حاولت فتح عيني.

كان الضوء أبيض وقوياً، فارتجفت جفوني وانغلقت من تلقاء نفسها. التقطت
أذناي أصواتاً متداخلة؛ خطوات سريعة، همسات متبادلة، أصوات أجهزة تصدر
نغمات منتظمة، وصوت امرأة تحاول تهدئي بينما كان شخص آخر يتحدث في
الخلفية.

لم تكن هذه أصوات قصر ماركوس.

لم تكن هناك سيوف تتصادم، وال حوافر خيول، وال صرير عربات خشبية.

كان المكان مختلفاً تماماً.

حتى الهواء بدا غريباً؛ بارداً ونظيفاً، يحمل رائحة لم أعرف لها اسماً، مزيجاً من النظافة والأدوية وشيء معدني خفيف.

لم أكن بحاجة إلى كثير من الوقت أدرك أنني في عالم مختلف عن عالمي القديم. عالم لم أعرف عنه شيئاً.

عالم لم أَر فيه حصاناً واحداً، ولم ألمح فيه درعاً أو سيفاً، بل أضواء ساطعة وأجهزة غريبة وأشخاصاً يرتدون ملابس بيضاء ويتحركون حولي بسرعة مدروسة. مستشفى.

لم أعرف كيف عرفت ذلك بهذه السرعة، لكن الكلمة ظهرت في ذهني واضحة، كأن ذكرى بعيدة قد انفتحت فجأة.

مستشفى عصري.

إذن، لم أعد إلى الماضي الذي جئت منه.

لقد انتقلت إلى زمن آخر، إلى حضارة بلغت من التطور ما جعلني أشعر بأنني غريب حتى قبل أن أرى العالم بعيني.

لكن كل تلك الأفكار تالشت عندما سمعت المرأة التي تحملني تتحدث مجدداً. «أرجوكم هل يمكنني حمله قليلاً؟ إنه يبكي منذ لحظات.. أريد فقط أن أطمئن عليه.»

كان في صوتها قلق صادق، ال ذلك القلق المذهب الذي اعتدت سماعه من الخدم حين كانوا يخشون غضب الملك، وال ذلك الاهتمام الذي يُقدّم ألن الواجب يفرضه.

لقد كانت قلقةً علي حقاً. لماذا؟

أنا ال أعرفها.

وهي ال تعرفني.

ومع ذلك، كانت تتحدث عني كما لو أن سالمتي أهم شيء في العالم بالنسبة إليها.

شعرت بذراعين تقتربان مني مرة أخرى، ثم انتقل جسدي الصغير من يد إلى أخرى، حتى وجدت نفسي مستلقياً بين ذراعيها.

وعندها رأيتهما.

كانت أمي الجديدة.

ال أعرف لماذا خطرت لي هذه العبارة بتلك السهولة، وال لماذا شعرت بشيء

غريب ينقبض في صدري عندما نظرت إليها.

ربما ألني لم أكن أملك اسماً آخر أطلقه عليها.

أو ربما ألن روحي، رغم كل ما حملته من ذكريات، كانت تبحث عن شيء لم تعرف يوماً كيف تطلبه.

كانت بشرتها بيضاء ناعمة، ينساب فوقها الضوء الخافت فيجعل مالحتها تبدو هادئة كأنها لوحة رُسمت في صباح ربيعي. انسدل شعرها البني الطويل حول كتفها، وقد تناثرت بعض خصلاتته على جانبي وجهها بعدما بدا عليها الإرهاق. لم تكن زينتها أو مالبسها هي ما لفت انتباهي، بل ذلك التعب الرقيق الذي استقر تحت عينيها، وتلك البتسامة المرتجفة التي حاولت رسمها رغم القلق.

أما عيناها...

كانتا بلون عسلي مائل إلى الأصفر الخفيف، يمتزج فيه دفء البني بلعة ذهبية هادئة، كأشعة الشمس حين تتسلل عبر نافذة في صباح بارد.

لم تكونا عينيّن تشبهان عينيّ إيلارا.

ولم تكونا عينيّ أي شخص عرفته من قبل.

ومع ذلك، عندما نظرت إليّ، شعرت للحظة بأنني أمام شيء افتقدته طوال حياتي،
دون أن أمتلك الشجاعة للاعتراف بأنني كنت أحتاج إليه.

ابتسمت لي.

ابتسامة صغيرة، متعبة، لكنها صادقة.

«ها أنت.. ذا.. أخيراً.»

قالتها وكأنها كانت تنتظر هذه اللحظة منذ زمن طويل، مع أنني لم أكن سوى رضيع
وصل إلى الدنيا قبل قليل. مررت إصبعها برفق على خدي، ثم عدلت الغطاء حول
جسدي الصغير، محاولة أن تحميّني من برودة الهواء.

«أعرف.. أعرف.. ال بد أنك خائف.»

خائف؟

أنا؟

لقد واجهت الموت دون أن أراجع. وقفت أمام رجال أرادوا تمزيقي، وخضت
معارك كنت أعرف أن فرص النجاة منها ضئيلة، وشاهدت أعز أصدقائي يموت
بين ذراعي دون أن أستطيع إنقاذه.

لم أكن خائفاً.

على الأقل، هذا ما أردت تصديقه.

لكن عندما المست يدها وجهي، وعندما قربتني من صدرها لتضميني إلى دفنها،
شعرت بشيء لم أكن مستعداً له.

كان حضنها دافئاً.

دافئاً بطريقة لم أعرفها من قبل.

لم يكن مجرد دفء جسدي، بل إحساس بالأمان، كأن العالم الذي صرخت في وجهه قبل لحظات قد توقف فجأة عن مطاردتي.

وضعت رأسي الصغير قرب صدرها، وراحت تهددني بحركات بطيئة. كان صوت أنفاسها يصل إلي بوضوح، منتظماً وهادئاً، بينما راحت يدها تربت على ظهري بخفة.

«...ششش ال بأس يا حبيبي. ماما هنا.»

ماما.

تلك الكلمة.

كلمتان بسيطتان، سمعت مثلهما من قبل في حكايات الأطفال، وربما قرأتها في كتب لم أعد أذكرها، لكنهما الآن بدتا مختلفتين تماماً.

لم أكن أعرف هذه المرأة.

لم أكن أعرف اسمها، وال حياتها، وال أي شيء عن العالم الذي وُلدت فيه.

ومع ذلك، كانت تضمّني وكأنها تعرفني منذ الأزل.

كانت تحاول تهدئتي، تمسح دموعي الصغيرة بإبهامها، وتهمس لي بكلمات لم أستطع تمييزها كلها.

«أنا. معك.. لن يحدث لك شيء.. خذ وقتك يا صغيري.»

يا صغيري.

كم مرة تمنيت، في حياتي السابقة، أن أسمع كلمات تشبه هذه دون أن أشعر بأن

وراءها واجباً أو شفقة أو انتظاراً لمقابل؟ لقد عشت في قصر ملكي، ونشأت بين أشخاص كان من المفترض أن يكونوا عائلتي. حصلت على الطعام والملبس والتعليم والتدريب، وحظيت بمكانة لم يحلم بها كثيرون.

لكنني تعلمت منذ طفولتي أن أكون قوياً.

أن أتحمل الألم.

أن أقف عندما أسقط.

أن أبتلع دموعي قبل أن يراها أحد.

كان علي دائماً أن أكون جديراً بالمكان الذي مُنح لي، جديراً بثقة الملك، جديراً بالدرع الذي ارتديته، جديراً بأن أكون فارساً ال ينكسر.

حتى عندما كنت ، لطفاً كان الجميع يرون ما يمكنني أن أصبح عليه.

الفارس العظيم.

المقاتل الموهوب.

القائد الذي يستطيع إنقاذ الجنود من الموت.

لكن كم مرة سألني أحدهم إن كنت متعباً؟

كم مرة احتضنني أحدهم ألني كنت بحاجة إلى حضن، ال ألني أنجزت شيئاً يستحق المكافأة؟

كم مرة سمح لي أحدهم بأن أكون لطفاً فحسب؟

لم أجد إجابة.

ربما كانت هناك لحظات حنان حقيقية في طفولتي القديمة. لم تكن حياتي كلها قسوة، ولم يكن الملك ماركوس لرجاً بال قلب. لكنني كنت دائماً أشعر بأن علي أن

أثبت شيئاً ما، حتى في أكثر اللحظات التي كان ينبغي لي فيها أن أرتاح.
أما هذه المرأة...

فلم تطلب مني شيئاً.

لم تكن تعرف من سأكون عندما أكبر.

لم تكن تعرف إن كنت سأصبح طبيباً أو لعاماً أو لرجاً عادياً ال يترك أثراً في التاريخ.

لم تكن تعرف أن روجي تحمل ذكريات رجل مات وهو يظن أن حياته انتهت إلى الأبد.

كانت تعرف شيئاً واحداً فقط.

أنني طفلها. وهذا وحده كان كافياً لتضمني إلى صدرها بكل ذلك الحنان.
حاولت أن أوقف بكائي.

أقسم إنني حاولت.

لقد كنت لوسين، الرجل الذي أمضى حياته يتحدى الألم، والذي رفض أن يسمح للدموع بأن تهزمه أمام الآخرين.

لكن جسدي الصغير لم يستجب لي.

ظلت شهقاتي تتالحق، وارتجفت شفتي، وشعرت بدموع دافئة تنساب على وجهي.
لم أستطع السيطرة على شيء؛ ال على أنفاسي، وال على أصابعي، وال على تلك المشاعر التي بدأت تتجمع في داخلي حتى شعرت بأن صدري أضيق من أن يحتملها.

لماذا أبكي؟

لماذا يؤلمني هذا الدفء أكثر مما ألمتني جراح السيوف؟

ولماذا أشعر بأنني فقدت شيئاً عظيماً، رغم أنني لم أكن أعرف لأصاً أنني أملكه؟
ثم فهمت.

لم تكن دموعي بسبب خوفي من هذا العالم الجديد.
وال بسبب عجز جسدي.

وال بسبب الحزن على حياتي القديمة وحده.

كنت أبكي ألن أحداً احتضني أخيراً دون أن ينتظر مني أن أكون قوياً.
ألن أحداً رأى في لطفاً يستحق الحنان، ال مشروع فارس، وال أداة للحرب، وال
لرجاً ينبغي أن يحمل أعباء أكبر من عمره.

كنت أبكي أللني شعرت للمرة الأولى بدفء أمومي حقيقي.

دفء ال تصنعه العادات، وال تفرضه الواجبات، وال يحتاج إلى سبب كي يوجد.
دفء جعلني أدرك كم كنت وحيداً، حتى في أكثر الأماكن ازدحاماً بالناس.
وكم كنت متعطشاً إلى شيء بسيط كهذا، دون أن أعترف لنفسني بذلك يوماً.
انحنيت ألي فوق، لقليلاً وأخذت تمسح دموعي برفق، ثم قربت وجهي من وجهها.
«يا إلهي، كم أنت صغير...»

ضحكت ضحكة خافتة، تسلفت إليها رعشة من التعب والفرح.

«هل كنت تنتظر كل هذا الوقت لتخبرني بأنك ال تحب المستشفى؟»

لو كنت أستطيع الكلام، ألخبرتها أنني أكره المستشفيات بالفعل، وألني أكره أيضاً
الأرواح الزرقاء التي ترتدي البدالت السوداء وتعبث بحياة الناس كما لو كانوا قطعاً
على رقعة شطرنج.

لكنني لم أستطع سوى إصدار صوت صغير متقطع.

فابتسمت، وكأنها فهمتني.

«حسناً .حسناً.. لن نبقى هنا . لطوياً فقط دعني أطمئن عليك.»

واصلت هدهدتي، وأخذت تحرك جسدها ببطء، في إيقاع هادئ يشبه أغنية بال
كلمات. ومع مرور اللحظات، بدأ جسدي الصغير يستجيب لها.

تراجعت شهقاتي.

هدأت ذراعي.

انفجرت أصابعي التي ظلت منقبضة منذ والدتي، واستقرت رأسي الصغيرة في
المكان الذي اختارته لي بين ذراعيها.

حتى بكائي بدأ يخفت، إلى أن لم يبق منه سوى أنفاس متقطعة واهنة.

من الخارج، بدا الأمر وكأن الطفل قد هدأ أخيراً.

لكن روحي...

روحي لم تهدأ.

بل ربما كان ذلك أسوأ ما حدث لي منذ أن بدأت هذه الحياة الجديدة.

ألني لم أعد أستطيع الختباء خلف الغضب.

لم أعد أستطيع أن أتمسك بكراهييتي ألديان، أو أن أستحضر صورة آرثر وهو
يضحك، أو أن أستعيد مشهد المعركة الأخيرة كي أقنع نفسي بأن الألم الذي أشعر به
مجرد أثر من آثار الموت.

كنت بين ذراعي امرأة ال تعرفني، ومع ذلك أحبتي قبل أن تعرف عني أي شيء.

وكان ذلك كافياً ليحطم آخر جدار بنيته حول قلبي.

انفجرت بالبكاء من جديد.

لم يكن بكاءً مرتفعاً هذه المرة، ولم يكن صراخاً يشبه صراخ الطفل الذي يخاف من العالم.

كان بكاءً صامتاً، داخلياً، ال يستطيع أحد سماعه أو رؤيته.

بكاء رجل قضى حياته كلها يبحث عن مكان يستطيع فيه أن يضع سيفه جانباً، وينزع درعه، ويتوقف عن التظاهر بأنه ال يحتاج إلى أحد. رجل مات وحيداً، وهو يحمل في قلبه حباً لم يستطع الاعتراف به في الوقت المناسب، وذكريات صديق لم يتمكن من إنقاذه، وندماً لم يعد بإمكانه إصلاحه.

والآن، بعد أن انتهت حياته، وجد نفسه بين ذراعي أم ال يعرفها، تمنحه ما لم يعرف كيف يطلبه من قبل.

لم أستطع أن أقول لها إنني ممتن.

لم أستطع أن أخبرها بأن صوتها جعلني أشعر بأنني عدت إلى الحياة حقاً، ال أن قلبي ينبض، بل أن شيئاً في داخلي كان قد مات منذ زمن طويل وبدأ يتحرك من جديد.

لم أستطع حتى أن أرفع يدي ألتشبث بشياها كما يفعل الأطفال.

كل ما استطعت فعله هو البكاء.

وكان ذلك، للمرة الأولى، كافياً.

شعرت بيدها تمر على شعري الخفيف، ثم مالت نحوي وقبّلت جيني قبلة طويلة وناعمة.

أغمضت عينيها للحظة، وكأنها تحفظ ما لمحي في ذاكرتها.

ثم همست:

«مرحباً بك في العالم يا نيراس.»

نيراس.

كان هذا اسمي الآن.

اسم جديد، وحياة جديدة، وأم جديدة.

لم أعرف ما الذي ينتظرني في هذا العالم، وال إن كنت سأحمل يوماً اسم لوسين في ذاكرتي وحدها، أم أنني سأصبح شخصاً مختلفاً تماماً.

لكنني عرفت شيئاً واحداً، وأنا أستمع إلى دقات قلبها الهادئة تحت أذني الصغيرة. لم أعد أسقط.

للمرة الأولى منذ أن ألقت بي روح الزمن في هذا المجهول، شعرت بأن هناك من يمسكني، وأني لن أرتطم بالأرض وحدي.

شدّتي أُمي إلى صدرها، لقليلاً ثم مررت إصبعها على خدي، وابتسمت لي من جديد.

«...نيراس يا صغيري الجميل.»

لم أكن أعرف إن كنت أستطيع أن أحبها، أو إن كنت أستحق هذا القدر من الحنان بعد كل ما فعلته في حياتي الماضية.

لكنني كنت أعرف أنني ال أريد لهذا الدفء أن ينتهي. ولو كان علي أن أبدأ حياتي من الصفر، وأن أتعلم المشي والكلم والضحك من جديد، وأن أعيش سنوات طويلة قبل أن أفهم هذا العالم، فسأفعل.

هذه المرة، لن أبحث عن سبب يجعلني جديراً بأن يحبني أحد.

سأحاول فقط أن أعيش.

أن أكون نيراس.

وأن أحمي، ما استطعت، هذه اللحظة التي منحتني فيها امرأة غريبة شيئاً لم أكن أعلم أنني قضيت حياتي كلها أفقده.

عائلة.

الراوي:

اللعنة عليك يا روح الزمن!

لقد سلبت وظيفتي!

حتى الراوي لم يعد يملك حق رواية القصة بسالم في هذا العالم!

لكن لو سين لم يسمع شيئاً من ذلك.

فهو الآن نيراس، طفل صغير غارق في دفء حضن أمه، ال يعلم أن أحداً ما في مكان آخر قد بدأ بالفعل يشتكي من البطالة.

وصدقوني...

هذه ليست آخر مرة سيُسبب فيها أحدهم روح الزمن.

الفصل التاسع: مذاق لم تعرفه الملوك

لو أخبرني أحدهم، في حياتي السابقة، أنني سأقضي يوماً لكاماً أفكر في كيفية تحريك أصابع قدمي دون أن أبدو كالأحمق، لضحكت في وجهه، ثم طلبت منه أن يبتعد عني قبل أن أساعده على اكتشاف شكل الأرض عن قرب. لكن الحياة، كما يبدو، تمتلك حساً فكاهياً رديئاً للغاية.

فبعد أن كنت فارساً يستطيع حمل سيفه لساعات، ومواجهة خصوم يفوقونه عدداً، وتحليل خطط عسكرية معقدة في دقائق، وجدت نفسي محاصراً داخل جسد رضيع ال يستطيع حتى حك أنفه دون أن تتحول المسألة إلى أزمة وجودية. مرحباً بكم في حياتي الجديدة.

أنا نيراس. أولوسين، إن كنتم تفضلون السم القديم.

وبينما ال تزال روحي تتذكر طعم الدم ورائحة البارود ووجه صديقي الذي فارق الحياة بين ذراعي، كان جسدي الجديد لمشغواً بأمور أكثر أهمية بكثير، مثل اكتشاف أن أصابع يدي تصلح للضغط، وأن العالم يصبح مربعاً عندما يختفي وجه أمي من مجال رؤيتي، وأن البكاء صالح فعال بصورة مخيفة، حتى إنني بدأت أشك في أن الأطفال هم الحكام الحقيقيون لهذا العالم، وأن البالغين مجرد خدم لديهم وظائف مزعجة.

والأسوأ من ذلك كله؟

كنت واحداً منهم.

الأشهر: الأولى حين يصبح النوم رفاهية

ال أتذكر اليوم الذي ولدت فيه بكل تفاصيله، لكنني أتذكر جيداً الأيام التي تلتته.

في البداية، كان العالم بالنسبة إلي مجموعة من الأضواء الساطعة والأصوات الغريبة والروائح التي لم أستطع تصنيفها. كانت الأشياء تبدو أكبر مما ينبغي، والأصوات أعلى مما أحتمل، وحتى الهواء كان يحمل إحساساً مختلفاً عن ذلك الذي عرفته في مملكتي القديمة.

احتجت إلى وقت حتى أعتاد هذا الجسد.

وقت طويل، أطول مما أود الاعتراف به.

لم يكن الأمر مجرد ضعف العضلات أو عدم القدرة على الكلام. كانت هناك تفاصيل أكثر إزعاجاً؛ فقد كنت أشعر بالجوع دون أن أفهم دائماً سبب انزعاجي، وأشعر بالنعاس في أوقات ال تناسبي إطلاقاً، ثم أستيقظ فجأة في منتصف الليل وكأن أحدهم قرر أن يعلن الحرب على سالمي الداخلي.

ولم يكن بوسعي سوى البكاء.

أحياناً، كنت أبكي ألني جائع.

وأحياناً ألني متعب.

وأحياناً أخرى، كنت أبكي ألني ال أعرف لماذا أبكي لأصاً.

في تلك اللحظات، كنت أشعر بأن روعي القديمة تنظر إلى هذا الجسد من الداخل، ثم تضع يدها على وجهها في يأس.

يا إلهي، لوسين، لقد واجهت جيوشاً كاملة. ألن تستطيع التغلب على بطن فارغ؟

كنت أريد أن أجيب نفسي، لكنني لم أملك الكلمات وال القدرة على تشكيلها.

وهكذا كنت أواصل البكاء.

وكانت أمي تأتي.

دائماً كانت تأتي. أمي، سالفيا.

لم أكن أعرف عنها شيئاً تقريباً في البداية، سوى أنها المرأة التي تحملني كلها شعرت بأن العالم أصبح أكبر من قدرتي على احتماله. لكنني بدأت، مع مرور الأيام، أكتشف مالمحها شيئاً فشيئاً، كما لو أنني أجمع قطع صورة لم أرها من قبل.

كانت سالفيا رياضية محترفة، امرأة اعتاد جسدها الحركة والتدريب والنضباط. كنت أراها أحياناً بمالبسها الرياضية، وشعرها البني الطويل مربوطاً إلى الخلف، ومالمحها تحمل ذلك الإصرار الذي ال يخطئه المرء في وجوه الأشخاص الذين اعتادوا دفع أنفسهم إلى ما وراء حدودهم.

كانت قوية، بال شك.

قوية بطريقة جعلتني، في لحظات صفاء عقلي، أتساءل عما إذا كان بإمكانني هزيمتها في مصارعة الذراع لو كنت في جسدي القديم.

ثم أتذكر أنني ال أستطيع حتى الجلوس بمفردي.

وأقرر تأجيل التحدي إلى موعد غير محدد.

ومع ذلك، كانت قوتها تتخذ لشكاً مختلفاً عندما تحملني.

كانت ذراعاها اللتان اعتادتتا التدريب تحمالني بحذر شديد، وكأنني شيء ثمين يمكن أن ينكسر من لمسة خاطئة. وكانت تلك المرأة التي تستطيع إجهاد نفسها في التمارين لساعات، تستيقظ من نومها بمجرد أن تسمع بكائي، حتى لو لم يمض على نومها سوى وقت قصير.

كنت أشعر أحياناً بالذنب.

نعم، أنا، لوسين الذي اعتاد مواجهة الموت دون أن يرف له جفن، كنت أشعر بالذنب ألني أوقظ أُمي من نومها.

يا لها من نهاية مجيدة للفارس العظيم.

أما أبي، فيكتور، فكان قصة مختلفة تماماً.

كان لرجاً ذا شعر أسود وعينين سوداوين عميقتين، وكانت مالحة تحمل هدوءاً يصعب زغزغته. لم يكن كثير الضجيج، ولم يكن يحتاج إلى رفع صوته حتى يلفت الانتباه. كان حضوره وحده كافياً لينح المكان شعوراً بالاستقرار، كأن الأشياء ستظل في مواضعها ما دام موجوداً.

وكان لديه شعر أسود جميل، وهو أمر أقرب به على مضض، ألني كنت أعرف أنني ورثته عنه.

نعم، لقد ورثت شعر أبي الأسود.

أما عيناى، فقد ورثتهما عن أمي؛ ذلك اللون المميز الذي يمزج البني بلهسة صفراء خفيفة، فيبدو أحياناً عسلياً تحت الضوء، وأحياناً آخر أكثر دفئاً عندما تسقط عليه أشعة الشمس.

كنت أجد الأمر مثيراً للاهتمام.

في حياتي السابقة، لم تكن مالحي هذه هي مالحي الحالية. أما الآن، فقد حمل جسدي الجديد أثراً من كل واحد منهما؛ شعر أبي، وعيناى. كنت أنظر إلى انعكاسي الصغير حين تسنح لي الفرصة، وأحاول تخيل وجهي عندما أكبر.

هل سأشبه فيكتور؟

هل سأحصل على ابتسامة سالفيا؟

وهل سأبدو يوماً كرجل بالغ، لبدأً من كائن صغير يستطيع أن يحول مجرد العطاس إلى حدث يستدعي اجتماع الأسرة؟

لم تكن لدي إجابات.

لكنني بدأت أجد شيئاً غريباً في التفكير بهذه الأسئلة.

للمرة الأولى منذ موتي، كنت أفكر في مستقبلي دون أن أتخيل سيفاً أو معركة أو قبراً.

كنت أفكر في وجهي.

وفي شعري.

وفي شكل الحياة التي تنتظرني.

وربما، للمرة الأولى أيضاً، لم أشعر بأن المستقبل عدو ينتظر اللحظة المناسبة ليطنعني في ظهري.

فضائح ال تليق بفارس سابق

سأعترف لكم بشيء، على أن يبقى هذا الاعتراف بيننا.

ال، بل انتظروا.

أتم قراء، ومن الواضح أنكم ال تعرفون معنى الخصوصية، خصوصاً أن بعضكم يستمتع بمشاهدة معاناتي أكثر مما ينبغي.

حسناً، ال يهتم.

لقد كانت الأشهر الأولى مليئة بالمواقف التي أفضل لو أنني أستطيع محوها من ذاكرة هذا العالم.

وأبرزها، دون منافس، تغيير الحفاضات.

نعم.

الحفاضات.

ذلك الخترع الذي يبدو بسيطاً بما يكفي حتى تدرك أن مصيرك الشخصي أصبح

متعلقاً به.

في حياتي السابقة، كنت أستطيع اتخاذ قرار مصيري خالٍ لحظات. كنت أستطيع التخطيط لتحركات فرقة كاملة، وحساب مسارات الهجوم والنسحاب، وتحديد مواضع الخطر قبل أن يلاحظها الآخرون. أما الآن، فقد أصبحت عاجزاً عن منع جسدي من إعلان حالة طوارئ في أكثر الأوقات غير المناسبة.

وكانت المشكلة أن جسدي لم يكن يستأذني.

لم يكن ينتظر موافقتي.

ولم يكن يكثر إطلاعاً بأن صاحب هذا الجسد يحمل ذكريات فارس بالغ، أو أنه كان يفضل الموت مرة أخرى على المرور بتلك التجربة.

كنت أشعر بالخزي في كل مرة تمهلي فيها أمي لتغيير الحفاضة، خصوصاً عندما تتحدث إلي بنبرة مرحة، وكأن الأمر مجرد نشاط يومي عادي.

«حسناً يا صغيري، دعنا نرى ما الذي حدث هنا.»

ال يا أمي.

أرجوك.

ال تنظري.

ال تتفحصي.

ال تحاولي معرفة التفاصيل.

أنا رجل مات في ساحة معركة!

أو كنت كذلك، على الأقل.

لكنها كانت تبسم، وتعامل مع الأمر بكل بساطة، ثم تنظفني وتبدل مالبسي

وتضمن أنني مرتاح، دون أن يخطر ببالها أن الطفل الذي بين يديها يمر بأزمة كرامة
أشد من أي أزمة مر بها في حياته السابقة.
والأدهى من ذلك أن أبي كان يساعدها أحياناً.
كنت أسمع صوته الهادئ يقول:
«أظن أن نيراس قرر أن يختبر قدرتنا على التحمل اليوم.»
فتجيبه أمي وهي تحاول كتم ضحكها:
«إنه طفل يا فيكتور.»
«أعرف لكنني بدأت أعتقد أنه يفعل ذلك عن قصد.»
عن قصد؟!

يا رجل، هل فقدت عقلك؟ هل تظن أنني أستيقظ كل صباح وأضع خطة سرية
إلفساد يومكم؟

المرحلة: الأولى إزعاج الوالدين.

المرحلة: الثانية تحطيم معنوياتهما.

المرحلة: الثالثة السيطرة على المنزل.

بالطبع ال!

أنا نفسي ضحية هنا!

لكن ما الذي يمكنني فعله؟ لم أكن أستطيع التحكم في جسدي، مهما حاولت.
كنت محاصراً داخل نظام بيولوجي ال يأخذ رأبي في أي شيء، وال يعترف بماضي،
وال يمنحني حتى حق تقديم شكوى رسمية.

ولو كانت هناك وزارة لشؤون الأطفال، لكنت أول من يطرق أبوابها.

لكنني كنت رضيعاً.
لذلك لم أطرق أي باب.
بل بكيت عندما شعرت بالجوع.
وبكيت عندما شعرت بالنعاس.
وبكيت عندما لم أجد سبباً للبكاء.
وكنت، في بعض المرات، أبكي ألني أدركت أنني ال أستطيع فعل أي شيء سوى
البكاء..

يا لها من دائرة جهنمية.
أما الرضاعة، فكانت معركة أخرى خضتها بصمت.
لم يكن الأمر مؤلماً أو سيئاً كما قد يتخيل أحدكم، بل كانت المشكلة في عقلي أنا.
كنت أعني كل ما يحدث من حولي بوعي رجل بالغ، بينما كان جسدي يتعامل
مع الأمر بوصفه حاجة طبيعية ال تستحق كل هذا التحليل.
كنت أحاول أن أشغل نفسي بأفكار أخرى.
أتذكر مواقف من حياتي السابقة.
أستعيد خطط المعارك.
أفكر في شكل العالم الجديد.

لكن الجوع كان ينتصر في النهاية، وكان جسدي يتصرف وفق احتياجاته، بينما
كنت أنا أجلس في الداخل، أشاهد كرامتي وهي تتلقى هزيمة جديدة. وفي كل
مرة، كانت أمني تضميني إليها بحنان، وتربت على ظهري، وتهمس لي بكلمات
بسيطة.

«هكذا يا .حبيبي.. خذ وقتك..»

لم تكن تسخر مني.

لم تكن تشعر بأنني أقل شأنًا ألني عاجز عن الاعتماد على نفسي.

لم تكن تنتظر مني أن أكون قوياً أو لمستقاً أو جديراً بشيء..

كانت تطعمني ألنها أُمي.

وكانت تعتني بي ألني طفلها.

وبينما كنت أختي خلف سخريتي الداخلية من ذلك الجسد الصغير، كان جزء آخر مني يتعلم شيئاً لم أتعلمه في قصر ماركوس، رغم كل سنوات التدريب والنضباط.

أن العجز ال يجعل المرء أقل استحقاقاً للحب.

وأن الإنسان ال يحتاج إلى إثبات قوته كل يوم كي يستحق أن يُعامل بلطف.

كانت فكرة بسيطة.

لكنها كانت أثقل على قلبي من أي سيف حملته يوماً.

طعام .الأبطال.. أو ما يشبهه

مع مرور الأشهر، بدأت مرحلة جديدة من حياتي.

مرحلة الوجبات المرفوضة.

أو الوجبات المهروسة، كما كان يسميها الكبار.

أعتقد أن الشخص الذي اخترع هذه الفكرة كان يمتلك نية طيبة، لكنه لم يكن يملك ذوقاً في الطعام.

في البداية، كانت الملعق الصغيرة تقترب من في محملة بألوان غريبة وقوام ال يبعث على الثقة. كنت أنظر إلى الطعام، ثم إلى أُمي، ثم إلى الملعقة، لمحاوً فهم سبب

اعتقادها أن هذا الشيء يستحق أن يدخل في بإرادتي.

وكانت أمي، بطبيعة الحال، تبسم وتقول:

«هيا يا نيراس، جرب ل قليلاً.»

قليال ؟

هل هذه المادة اللزجة هي ما يأكله البشر في هذا العالم؟

هل انتهت الحضارة الحديثة إلى هذا الحد من التراجع؟ أين اللحوم المشوية؟ أين الخبز الطازج؟ أين الأطباق التي تُطهى على نار حقيقية وتنفوح منها الروائح حتى تجعل المرء ينسى اسمه؟

ثم كانت الملعقة تدخل في.

وأكتشف أن الأمر ليس سيئاً كما توقعت.

بل إن بعض تلك الوجبات كان لذيذاً على نحو مفاجئ.

كنت أكره الاعتراف بذلك، لكن حاسة التذوق لدي لم تكن متعاونة مع كبريائي. كانت هناك نكهات لطيفة، وقوام ناعم، وحالوة خفيفة تجعلني أفتح في للملعقة التالية دون أن أشعر.

وبالطبع، كانت أمي تلاحظ ذلك.

«أرأيت؟ كنت أعرف أنك ستجبه.»

ال تبالغي في الحتفال، يا أمي.

لقد أكلت ملعقتين فقط.

ثم أكل الثالثة.

والرابعة.

والخامسة...

حسناً، ربما كانت محقة.

كانت أُمي تبدو سعيدة كلما أكلت جيداً، بينما كان أبي يراقبنا من مكان قريب بابتسامة هادئة، وأحياناً يعلق بأُني أبدو جاداً أكثر مما ينبغي لطفل يتناول وجبته.

كنت أريد أن أخبره أن تناول الطعام مسألة استراتيجية.

عليك أن تدرس الملعقة، وتقيم محتواها، ثم تقرر إن كان يستحق المخاطرة.

لكنني لم أكن أستطيع قول ذلك.

لذلك كنت أكتفي بالنظر إليه بوجهي الصغير، لمحاوِّ الحفاظ على هيبتي.

وهو، لأسف، كان يضحك كلما فعلت ذلك.

لقد بدأت أشك في أنّ والدي يستمتعان بمعاناتي أكثر مما ينبغي.

صندوق حُبست داخله البشرية إذا كانّ علي اختيار أكثر الأشياء التي أربكتني في هذا العالم، فلن أختار الحفاضات، وال الطعام المهروس، وال حتى حقيقة أنّي اضطررت إلى إعادة تعلم كيفية التحكم في جسدي.

بل سأختار التلفاز.

في إحدى المرات، كنت مستلقياً على الأريكة، أو بالأحرى مستلقياً في حضن أُمي بينما كانت تجلس على الأريكة، حين رفعت جهاز التحكم وفتحت التلفاز.

أضاءت الشاشة فجأة.

وظهرت عليها وجوه أشخاص يتحركون ويتحدثون، وكأنهم يعيشون داخل صندوق أسود كبير.

تجدت.

لم يكن ذلك تعبيراً مجازياً.

لقد تجدت ، لفعاً بقدر ما يسمح به جسد رضيع.

أين أنا؟

ما هذا المكان؟

من هؤلاء الناس؟

ولماذا ال يحاول أحد إخراجهم من الصندوق؟

حدقت في الشاشة، ثم نظرت إلى أمي، ثم عدت إلى الشاشة.

كان هناك رجل يتحدث بحماس، وخلفه مجموعة من الأشخاص يتحركون في مكان لم أراه من قبل.

هل كانوا مسجونين؟

هل هذا نوع من العقاب في هذا العالم؟

هل حبسوا هؤلاء الأشخاص داخل جهاز ثم جعلوهم يؤدون أدواراً للترفيه عن الناس؟

لماذا يبدو الجميع وكأن الأمر طبيعي؟

حاولت أن أتحرك، وأن أرفع رأسي أكثر ألرى الشاشة بوضوح.

لكن أمي، التي ظنت أنني مهم بما يُعرض، ابتسمت وقالت:

«هل يعجبك البرنامج يا نيراس؟»

برنامج؟

هل هذا اسم السجن؟ ثم غيّرت القناة.

اختفى الأشخاص، وظهر آخرون.

شهقت في داخلي.

لقد نقلتهم إلى سجن آخر!

يا إلهي، كم عدد هؤلاء الناس؟ وكم عدد الصناديق التي يُحتجزون فيها؟

وبعد ذلك، حدث ما جعلني أفقد آخر ذرة من الثقة في فهمي لهذا العالم.

أخرجت أمي هاتفها.

ذلك الجهاز الصغير الذي تستطيع حمله بيد واحدة، ثم بدأت تنظر إلى شاشته وتقرأ

شيئاً ما، قبل أن تبسم وتقول:

«آه فهمت. يقولون إنني أستطيع تعديل وضعيتي في هذا التمرين حتى ال أضغط على
كتفي كثيراً.»

ثم أخذت تطالع الهاتف مجدداً، وبدأت تتحدث عن نصيحة وجدت بها بشأن التدريب.

حدقت فيها.

ثم في الهاتف.

ثم فيها مرة أخرى.

لحظة واحدة.

هل هذا الصندوق الصغير يتحدث أيضاً؟

وهل يقدم نصائح؟

هل يحتوي على أشخاص مصغرين يمكن استدعائهم عند الحاجة؟

وهل أستطيع أن أطلب منه خطة تدريب مناسبة لجسد رضيع؟
 تخيلت نفسي بعد سنوات، أحمل ذلك الجهاز وأطلب منه أن يعلمني كل ما أحتاج
 إلى معرفته عن هذا العالم.
 ثم تذكرت أنني ال أستطيع حتى الإمساك به جيداً.
 يا لها من إهانة.

لكنني لم أستسلم.
 كنت أراقب كل شيء. التلفاز، والهاتف، والأضواء، والأبواب التي تفتح دون
 مفاتيح تقليدية، والأصوات التي تصدر من أجهزة ال تحتاج إلى شخص يقف خلفها
 ليشرح ما يحدث.
 كان هذا العالم مختلفاً تماماً عن عالمي السابق.

هناك، كان السحريفسر الأشياء التي تتجاوز قدرة البشر.
 أما هنا، فقد بدت التكنولوجيا وكأنها سحر ارتدى معطفاً أنيقاً، وحصل على شهادة
 جامعية، ثم قرر أن يجعل حياة الناس أكثر راحة وتعقيداً في الوقت نفسه.
 وبصفتي شخصاً مات في عالم مليء بالفرسان والسيوف، لم يكن لدي خيار سوى أن
 أبدأ من جديد.

أن أراقب.
 أن أتعلم.
 وأن أوّجل تحقيق السيطرة على هذا العالم حتى أستطيع على الأقل الجلوس دون أن
 أميل إلى أحد الجانبين.

انتصار صغير اسمه الوقوف

مرت الأيام، ثم الأسابيع، حتى بدأت أشعر بأن جسدي يتغير.
لم يحدث ذلك دفعة واحدة.

في البداية، أصبحت قادراً على تحريك رأسي بثبات أكبر. ثم بدأت أستطيع رفعه دون أن أشعر بأني أحمل حجراً فوق كتفي. وبعدها، بدأت أطرافي تستجيب لي بصورة أفضل، وكأنها تتعلم أخيراً اللغة التي أحاول التحدث بها إليها منذ والدي. كانت تلك اللحظات تبدو عادية ألي شخص يراقب لطفاً يكبر.

أما بالنسبة إليّ، فكانت انتصارات حقيقية.

كل حركة إرادية كانت إنجازاً.

كل مرة أستطيع فيها الإمساك بشيء دون أن يسقط من يدي، كنت أشعر برغبة في رفع قبضتي والاحتفال.

لو كنت أستطيع الكالم آنذاك، لكنت أعلنت للعالم أن الفارس لوسين قد استعاد جزءاً من قوته!

لكنني كنت أستطيع فقط أن أبتسم ابتسامة صغيرة، فيصفق والداي وكأنني حققت معجزة.

وبمرور الوقت، أصبحت قادراً على الجلوس بمفردي.

ثم بدأت مرحلة الزحف.

كانت تلك المرحلة مزعجة أكثر مما ينبغي.

فقد اكتشفت أن الأرض بعيدة جداً عندما تكون قصيراً، وأن الوصول إلى لعبة تبعد متراً واحداً قد يتطلب جهداً بدنياً يشبه اجتياز جبل. ومع ذلك، كنت مصمماً.

كان لدي هدف.

أن أتحرك كما أريد، دون أن أحتاج إلى أن يحملني أحد كلها رغبت في الوصول إلى مكان آخر.

كنت أزحف عبر الغرفة، وأراقب الأشياء من حولي، وأحاول أن أفهم كيف تعمل. وكان أبي يضع أحياناً لعبة أمامي، ثم يشجعي على الوصول إليها، بينما تجلس أُمي بالقرب مني وتبتسم.

«هيا يا نيراس، تستطيع فعلها.»

كنت أزحف نحو اللعبة.

وأصل إليها.

ثم أرفع رأسي بفخر.

انتصار جديد.

لكنني كنت أعرف أن الأمر لن يتوقف هنا.

كنت أريد الوقوف.

أريد أن أشعرّ بقدمي وهما تحالان وزني.

أريد أن أرى العالم من ارتفاع أكبر، حتى لو كان ذلك الارتفاع ال يتجاوز بضعة سنتيمترات إضافية.

وبعد محاولات كثيرة، بدأت أتمسك بالأثاث وأرفع جسدي ببطء. كانت ساقي ترتجفان، وكان التوازن أشبه بمفاوضات مع عدو ال يلتزم بأي اتفاق.

أحياناً كنت أتمكن من الوقوفٍ لثوان.

وأحياناً كنت أسقط على مؤخرتي، ثم أهدق في الأرض بامتعاض شديد.

كنت أكره السقوط.

لقد كرهته في حياتي السابقة، وها أنا أكرهه في حياتي الجديدة.
 لكن الفرق أن السقوط الآن ال يترك جرحاً في صدري أو دمًا على ثيابي.
 كان يترك فقط لطفاً منزعجاً، ووالدين يحاولان كتم ضحكتهم.
 «ال تضحكي يا سالفيا.»

بالطبع، لم أستطع قول ذلك. لذلك نظرت إليها بوجهي الغاضب.
 فضحكت أكثر.
 خائنة.

ثم جاء اليوم الذي لن أنساه ما حييت.
 اليوم الذي وقفت فيه دون أن أتثبت بأي شيء.
 لم يكن هناك إعلان مسبق، وال موسيقى بطولية، وال ضوء ذهبي هبط من السماء
 ليخبرني بأنني بلغت مرحلة جديدة من حياتي.
 كان الأمر أبسط من ذلك بكثير.
 كنت في الرواق، بينما كان أبي وأمي يقفان على مسافة مني.
 كانت أُمي تنحني، لقليلًا وتمد ذراعيها نحوي، وابتسامتها تمل وجهها.
 «تعال إلي يا نيراس.»

أما أبي، فكان يقف في الجهة الأخرى، وقد انحنى هو أيضًا، مادًا ذراعيه نحوي.
 «ال تعال إلى هنا يا بطل. أريد أن أراك تأتي إلي.»
 نظرت إلى أُمي.

ثم إلى أبي.

ثم إلى أمي مرة أخرى.

يا لها من ورطة.

لقد كنت على وشك اتخاذ أول قرار مصيري في حياتي الجديدة.

إلى من أذهب؟

إذا ذهبت إلى أمي، فهل سيُشعر أبي بالحزن؟

وإذا ذهبت إلى أبي، فهل ستُشعر أمي بأنني فضّلتها عليها؟

لماذا يجب أن يكون عليّ الاختيار أصلاً؟

أنا طفل.

أريد الثنين. وبما أنني كنت قد بدأت أستعيد بعض السيطرة على جسدي، قررت أن أختبر قدراتي الجديدة في هذه المسألة تحديداً.

وضعت قدمي الأولى أمامي.

ثم الثانية.

ترنحت ، لقلياً فشقت أمي ومدت ذراعيها أكثر.

«بطء يا حبيبي، ال تتعجل.»

كان أبي يبتسم، وعيناه السوداوان تتابعان كل حركة أقوم بها.

«أحسن يا نيراس. خطوة أخرى.»

خطوة.

ثم أخرى.

كان الرواق يبدو لطوياً بصورة مضحكة، وكأن المسافة بينهما صُمّت خصيصاً لاختبار عزيمتي.

لكنني واصلت السير.

كنت أشعر بساقي ترتجفان، وبجسدي يميل يميناً ويساراً. وكل خطوة كانت تتطلب مني تركيزاً لم أحتج إليه حتى في أصعب تدريباتي العسكرية. وأخيراً، اقتربت منهما.

فتحت أُمي ذراعها أكثر، وارتسمت على وجهها ابتسامة جعلتني أشعر بأنني أستطيع الوصول إلى أي مكان في العالم ما دامت تنتظرنني في نهايته. أما أبي، فكان ينظر إليّ بفخر واضح. بقيت خطوة واحدة.

ثم أخرى.

وعندما وصلت إليهما، لم أتجه إلى أحدهما.

لبداً من ذلك، أمسكت ذراع أُمي الصغيرة بيدي، ثم أمسكت ذراع أبي باليد الأخرى، وجذبتهما نحوي بكل ما أملك من قوة.

لم تكن قوتي كبيرة بالطبع.

لكنها كانت كافية إلباكهما.

«أواه نيراس؟»

«ماذا يفعل؟»

لم أمنحهما الوقت لفهم ما يحدث.

واصلت جذبهما حتى اقتربا من بعضهما، ثم اندفعت إلى الأمام وسقطت بين

ذراعيهما، بينما احتضناني معاً في اللحظة نفسها.

ساد الصمت لثانية.

ثم سمعت ضحكة أبي.

ضحكة صادقة، عميقة، خرجت منه قبل أن يتمكن من إخفائها.

وضحكت أمي أيضاً، وهي تضمّني إلى صدرها وتقبّل خدي.

«يا لك من طفل صغير ماكر!»

ماكر؟

أنا؟

أنا فقط رفضت اتخاذ قرار غير ضروري.

كان بإمكانني أن أشرح لهما ذلك لو أن لساني تعاون معي.

لكنني اكتفيت بالبتسام.

لقد نجحت.

لم أختر أحدهما.

بل حصلت عليهما معاً.

وبينما كان أبي يمرر يده فوق رأسي، وأمي تحتضنني بحنان، شعرت بشيء دافئ

ينتشر في صدري.

لم تكن فرحة المشي وحدها.

بل فرحة الوصول.

فرحة أن أجد شخصين ينتظراني في نهاية الطريق، الّلهما يريدان مني أن أحمل

سيفاً أو أنقذ مملكة، بل ألهما يريداني أنا.
طفلهما الصغير.

نيراس.

أغمضت عيني، واستسلمت للحضن الذي جمعنا، وسمحت لنفسي بأن أستمتع باللحظة
دون أن أبحث عن تهديد خفي خلفها.
كان ذلك، بالنسبة إلى رجل مثلي، انتصاراً أكبر بكثير من تعلم المشي.

أول وجبة حقيقية

لكن أعظم انتصارات تلك الفترة لم يكن الوقوف.

وال المشي.

وال حتى اكتشاف أنني أستطيع جذب والدي إلى بعضهما البعض حين أرفض
الختيار بينهما.

كان أعظمها يوم تذوقت فيه طعام أمي.

حتى ذلك الوقت، كانت معظم وجباتي تأتي في عبوات جاهزة أو على هيئة أطعمة
مهروسة أعدت خصيصاً للأطفال. لم تكن سيئة، وقد اعترفت بذلك رغماً عني،
لكنها كانت تفتقر إلى شيء لم أستطع تحديده.

شيء كنت أفقده دون أن أعرف اسمه.

وفي ذلك اليوم، كنت جالساً على مقعدي الصغير قرب طاولة الطعام، بينما كانت
أمي تتحرك بين المطبخ والطاولة. كان شعرها البني الطويل مربوطاً إلى الخلف، وقد
ارتدت مئزراً بسيطاً فوق مالبسها.

كان أبي يجلس بالقرب منها، يتحدث معها عن يومه، بينما كانت رائحة الطعام تنتشر في أرجاء المنزل.

توقفت عن اللعب.

رفعت رأسي.

وشممت الهواء.

ما هذه الرائحة؟

لم تكن رائحة الطعام المعب الذي اعتدت عليه.

كانت أعمق، وأكثر دفئاً، وتحمل طبقات من الروائح المتداخلة؛ رائحة المكونات المطهية ببطء، والتوابل التي امتزجت ببعضها، والبخار الذي ارتفع من القدر، كأنه يحمل معه وعداً بشيء لذيذ.

شعرت بالجوع فوراً.

ليس ذلك الجوع الذي يدفعني إلى البكاء فحسب، بل جوع مختلف، جوع جعلني أراقب كل حركة تقوم بها أمي وكأنها تؤدي طقساً سحرياً لي ينبغي أن أفوت منه لتفصياً واحداً.

وضعت الطعام على الطاولة، ثم اقتربت مني وهي تحمل طبقاً صغيراً.

«حسناً يا نيراس، حان وقت تجربة شيء جديد.»

شيء جديد؟ لقد سمعت هذه العبارة من قبل.

وفي معظم الأحيان، كانت تعني أنني سأواجه شيئاً لزجاً لي يبعث على الثقة.

لكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً.

كان الطعام يبدو شهيئاً، حتى إنني نسيت للحظة أنني ال أستطيع استخدام يدي كما

ينبغي، وأني سأحتاج إلى مساعدة أمي في تناوله.
 جلست أمامي، وأخذت ملعقة صغيرة، ثم قربتها من فمي.
 فتحت فمي.
 وتذوقت أول لقمة.

ال أستطيع وصف ما حدث بعدها بدقة.
 أقسم إنني حاولت.
 لقد ذقت في حياتي السابقة أطباقاً فاخرة، وأطعمة أُعدت في مطابخ القصر الملكي
 على أيدي طهاة أمضوا سنوات في صقل مهاراتهم. تناولت لحوماً نادرة، وخبزاً
 طازجاً، وأطباقاً كانت تُقدّم في الوائم الملكية، حيث تُزيّن الطاوات بالفضة
 والكؤوس اللمعة، ويقف الخدم في انتظار إشارة من الضيوف.
 كان الطعام هناك لذيذاً.
 بل كان رائعاً أحياناً.
 لكن هذه اللقمة...
 كانت مختلفة.

لم تكن مجرد نكهة لذيذة تصل إلى لساني، وال مزيجاً متقناً من المكونات والتوابل.
 كان هناك شيء آخر.
 شيء لم أستطع أن أفسره بحاسة التذوق وحدها.

شعرت بالدفع، لأوَّ ثم بطمأنينة غريبة أخذت تتسلل إلى داخلي. كانت النكهة
 بسيطة، مألوفة في بساطتها، لكنها بدت لي وكأنها تحمل حكاية كاملة؛ حكاية عن

منزل دافئ، ومطبخ مضاء، وامرأة تقف أمام قدرها، تتذوق الطعام وتعديل نكهته،
ثم تفكر في الشخص الذي ستقدمه إليه.
كان الطعام يحمل أثر اليد التي أعدته.
أثر الوقت الذي بذلته فيه.

وأثر الحب الذي ربما لم تفكر أمي حتى في تسميته، أنها كانت تفعله بصورة طبيعية،
كما تتنفس، وكما تتبسم لي كل صباح. حدثتني في الملعقة.
ثم في أمي.

ثم عدت إلى الطبق.

لا.

هذا غير معقول.

كيف يمكن للطعام أن يكون بهذه اللذة؟

كيف يمكن لوجبة بسيطة أن تجعلني أشعر بأنني أتناول شيئاً لم أذوقه في حياتي
كلها؟

فتحت أمي فيها لتسألني إن كنت أحببت الطعام.

لكنها لم تكمل السؤال.

ألن دموعي بدأت تنهمر.

بغزارة.

وبسرعة جعلتها تتجمد في مكانه

الفصل العاشر صديق جديد، ووعد من حياة قديمة

أتعلمون ما الشيء الذي لم أكن أتوقع أن أفرح به إلى هذا الحد في حياتي الثانية؟
الكالم.

نعم، الكالم.

تلك القدرة البسيطة التي يستخدمها البشر كل يوم دون أن يفكروا فيها، والتي لم أكن أقدّر قيمتها حتى وجدت نفسي عاجزاً عن نطق كلمة واحدة مفهومة.

لقد كان الأمر أشبه بمحاولة تسلق جبل باستخدام ساقين ال تعرفان كيف تتحالن جسدك، بينما يصر عقلك على إخبارك بأنك تسقت لجباً أصعب من ذلك بكثير.

في حياتي السابقة، كنت أستطيع التحدث بطلاقة، ومجادلة آرثر لساعات، والقاء الأوامر على الجنود، ومناقشة الخطط العسكرية مع القادة، بل وحتى التحدث أمام الملك دون أن أرتبك.

أما الآن، فقد كنت أحتاج إلى وقت طويل كي أتعلم كيف أجعل لساني ينفذ ما أريده منه.

كان عقلي يعرف الكلمات، لكن في لم يكن يعرف الطريق إليها. والمشكلة الأكبر أنني لم أعد أعيش في المملكة التي نشأت فيها. لم تكن اللغة المحيطة بي هي اللغة التي اعتدت استخدامها في حياتي الأولى، كما أن أصوات هذا العالم وطريقة نطق أهله للكلمات كانت مختلفة تماماً عما حفظته ذاكرتي.

كنت أستمع إلى أمي وهي تتحدث، فأفهم المعنى العام لبعض الكلمات، ثم أحاول تقليدها بصوتي الصغير.

أحياناً أنجح.

وأحياناً أخرى، أخرج بصوت يجعلني أشك في أنني أحاول التحدث بلغة البشر لأصاً.

كانت سالفياً تبسم في كل مرة أحاول فيها قول شيء جديد، ثم تعيد نطق الكلمة ببطء، وتنتظر مني أن أكررها.

«ماما.»

كانت تلك من أولى الكلمات التي استطعت قولها بوضوح.

وحين سمعتها أمي تخرج من في للمرة الأولى، اتسعت عيناها، ثم وضعت يدها على صدرها وكأنني منحتها كنزاً لم تكن تتوقع الحصول عليه.

«انيراس هل قلت ماما؟»

بالطبع قلتها.

هل كنت تتوقعين أن أطلب إعلان الحرب على دولة مجاورة؟

لكنني لم أستطع قول ذلك، فاكثفت بابتسامة صغيرة.

احتضنتني أمي وقبّلت وجهي مرات متتالية، حتى بدأت أشعر بأنّ خدي سيتحوّلن إلى وسادتين من كثرة القبالت.

«يا إلهي، لقد نطقت أول كلمة فيكتور، تعال بسرعة!»

جاء أبي من الغرفة المجاورة، وقد بدا عليه القلق في البداية.

«ماذا حدث؟ هل سقط؟»

«ال لقد قال ماما!»

توقف أبي للحظة، ثم نظر إليّ.

وبعد أن استوعب ما سمعه، ابتسم ابتسامة واسعة، واقترّب مني ليحملني.

«حقاً؟ إذن، هل ستقول بابا أيضاً؟»

نظرت إليه.

ثم نظرت إلى أمي. كان من الواضح أن علي اتخاذ قرار سياسي حساس. فإذا قلت «بابا، فقد يعتقد أبي أنني منحته انتصاراً شخصياً على أمي، وإذا كررت «ماما، فقد أبدو وكأنني أتحيز لها.

يا لها من مسؤولية ثقيلة على طفل في هذا العمر!

قررت أن أحسم الأمر بأسرع طريقة ممكنة.

«..با..با.»

لم أكن قد نطقت الكلمة بإتقان، لكن أبي تجدد في مكانه للحظة، ثم ضحك بفرح لم يحاول إخفاءه.

«سمعت ذلك يا سالفيا؟ لقد قال بابا!»

«لقد قلت له أن ينتظر دوره»! فحسب أجابت أمي وهي تضحك.

وهكذا، حققت أول إنجاز لغوي في حياتي الثانية، وتسببت في منافسة صغيرة بين والدي على كلمة واحدة.

لم أكن أعرف إن كان ذلك أمراً يدعو للفخر أم القلق.

لكنني كنت سعيداً.

سعيداً أنني استطعت أخيراً أن أعبر عن نفسي، ولو بكلمات قليلة.

ومع مرور الوقت، بدأت الكلمات تتكاثر. تعلمت أسماء الأشياء، وأسماء الأشخاص، وكيف أطلب ما أريده، وكيف أجيب عن الأسئلة البسيطة التي يطرحها الكبار على الأطفال.

وكانت هناك مشكلة لم أكتشف حجمها إلّا عندما بدأت أتكلّم أكثر. كنت أحمل في رأسي لغتين مختلفتين، أو على الأقل طريقتين مختلفتين في التعبير عن الأشياء.

إحدهما تنتمي إلى حياتي القديمة؛ لغة تعودت استخدامها في القصر، وفي ساحة التدريب، وبين الفرسان والجنود.

أما الأخرى، فكانت لغة هذا العالم الجديد، لغة الشوارع والأجهزة والتلفاز والمحادثات اليومية.

في بعض الأحيان، كنت أعرف الكلمة التي أريد قولها، لكنني أجد نفسي أبحث عنها في ذاكرتي كما لو أنني أفتش عن سيف ضاع مني وسط معركة.

وفي أحيان أخرى، كنت أفكر بجملة كاملة من لغتي القديمة، ثم أحاول ترجمتها إلى اللغة الجديدة، فأكتشف أن التعبير الذي يبدو طبيعياً في الأولى يبدو غريباً أو مضحكاً في الثانية.

ولم تكن المشكلة في اللغة وحدها.

بل في أنني كنت أفكر كرجل بالغ، بينما كان عليّ أن أتكلّم كطفل صغير. كنت أريد أن أقول جملة طويلة، فأجد نفسي عاجزاً عن ترتيب الكلمات كما ينبغي. كنت أريد أن أشرح فكرة معقدة، فأكتشف أن مفرداتي الجديدة ال تكفي.

وكنت أريد، في بعض اللحظات، أن أعلّق تعليقاً ساخراً على أحد تصرفات أبي، لكن لساني الصغير كان يخونني، فيخرج مني صوت غير مفهوم يجعل أُمّي تضحك لبداً من أن تشعر بالإهانة.

مع ذلك، لم أكن مستاءً تماماً.

فكل كلمة جديدة كانت تمنحني مساحةً أوسع داخل هذا العالم.

وكل جملة أستطيع قولها كانت تجعلني أشعر بأن المسافة بيني وبين الآخرين تضيق لقليلًا.

لم أعد مجرد طفل يبكي عندما يحتاج إلى شيء..
أصبحت لطفًا يستطيع أن يطلبه.

وربما كان هذا أول شكل من أشكال الحرية التي عرفتها في حياتي الثانية.

جدّي . وجدّتي.. اكتشاف متأخر للعائلة

لم تكن عائلتي الجديدة تتكون من سالفيا وفكتور وحدهما، كما كنت أظن في البداية.

ففي أحد الأيام، أخبرني أبي بأن جدّي وجدّتي سيزوراننا.
جدّي وجدّتي؟

كان لدي أقارب أيضًا؟

ال أعرف لماذا بدت الفكرة غريبة إلى هذا الحد. ربما ألن حياتي السابقة جعلتني أعتاد على أن تكون العائلات العائلية معقدة، وأن تحمل الأسماء والمناصب معاني تتجاوز مجرد القرابة.

لكن هنا، كان الأمر مختلفًا.

كان هناك شخصان ينتميان إلى عائلتي، ويريدان رؤيتي ألني حفيدهما.
ال أكثر وال أقل.

حين وصل الثنان، كنت جالسًا قرب أمي، أراقب الباب بفضول.
دخلت جدّتي لأوًا.

كانت امرأة متقدمة في السن، لكن الزمن لم يسلبها جمالها. بل بدا لي، على نحو غريب، وكأنه أضاف إليه شيئاً ال يمكن للسنوات وحدها أن تصنعه.

كان في مالحتها هدوء ناضج، وفي عينيها بريق دافئ، وعلى وجهها خطوط رقيقة تحكي عن سنوات من الضحك والحزن والتجارب. أما ابتسامتها، فكانت تحمل ذلك النوع من الألفة الذي يجعل المرء يشعر بأنه يعرف صاحبها حتى لو رآه للمرة الأولى. كان جمالها من النوع الذي ال يختفي مع العمر، بل يتغير شكله ويصبح أعمق. وكأنها نمر فاخر، أضافت السنوات إلى مذاقه ثراءً ورونقاً، لبدأً من أن تنتقص منهما.

اقتربت مني، وانحنت لقليلاً لتصبح في مستواي، ثم ابتسمت.
«إذن هذا هو نيراس الصغير.»

لمست خدي برفق، وأخذت تتأمل وجهي كما لو أنها تحاول حفظ كل تفصيل فيه.
«كم كبرت!»

كنت أبلغ من العمر ما يجعل هذه العبارة مضحكة، لقليلاً لكنني فضلت أال أعترض.

فأنا، على الأقل، لم أكن أحتاج إلى أن يشرح لي أحد كيف يبدو طفل في عمر صغير.

ثم دخل جدّي.

وهنا كانت المفاجأة الحقيقية.

كنت أتوقع لرجاً مسناً، ضعيف الحركة، يعتمد على عصاه في السير، وربما يحتاج إلى مساعدة حتى يجلس على كرسيه.

لكن الرجل الذي دخل كان مختلفاً تماماً.

نعم، كان كبير السن، وقد ظهرت آثار العمر على وجهه وشعره، إل أن جسده ظل مفتول العضالت بصورة الفتة. كانت كتفاه عريضتين، وذراعاها تحمالن قوة واضحة، كما أن وقفته كانت مستقيمة وثابتة، وكأن جسده لم يتلقُ بعد رسالة مفادها أن السنوات قد مضت.

حتى خطواته كانت تحمل ثقة هادئة، ال تشبه حركات رجل يحاول إثبات قوته، بل حركات رجل يعرف جيداً ما يستطيع جسده فعله. حدقت فيه.

ثم نظرت إلى أبي.

ثم عدت إلى جدّي.

لحظة واحدة.

هل ورثت هذه العائلة عضالتها مع اسمها؟

وهل هذا يعني أن علي أن أستعد لمستقبل رياضي شاق؟

اقترب جدّي مني، وانحنى، لقلياً ثم مد يده ليصافني كما لو كنت لرجاً بالغاً. «أنت نيراس، أليس كذلك؟»

نظرت إلى يده الكبيرة.

ثم إلى وجهه.

مددت يدي الصغيرة، وأمسكت بإصبعه لبدأ من مصافحته بالطريقة التي أرادها.

ضحك جدّي بصوت عميق.

«حسناً يبدو أن لدينا لرجاً قوياً هنا.»

قوياً؟

يا سيدي، أنا بالكاد أستطيع فتح علبة طعام بمفردي.
لكنني ابتسمت له، ويبدو أن تلك الابتسامة كانت كافية لإرضائه.
حملني بين ذراعيه، فشعرت بأني انتقلت إلى مستوى أعلى من الأرض، ثم أخذ
يتحدث إلي بنبرة مرحة ويسألني إن كنت سأصبح قوياً مثله عندما أكبر.
كنت أراقب عضالت ذراعه، وأفكر في أنني سأحتاج إلى سنوات طويلة كي أصل
إلى ذلك المستوى.
لكنني لم أشعر بالخوف.
بل شعرت بالفضول.
كان جدّي مختلفاً عن كل كبار السن الذين تخيلتهم من قبل. لم يكن يبدو وكأنه
يقف عند نهاية الطريق، بل كرجل ما زال يملك الكثير ليقدمه، حتى لو كان قد
قطع شوطاً طويلاً في حياته.
أما جدّتي، فقد جلست قربنا، وراحت تضحك كلما قال جدّي شيئاً طريفاً.
كان الثنان يتبادلان النظرات والكلمات بطريقة جعلتني أشعر بأن بينهما حكاية
طويلة، حكاية ال تحتاج إلى أن تُروى كاملة كي تظهر آثارها في التفاصيل الصغيرة.
كانت جدّتي تعرف متى يبالغ جدّي في الحديث عن قوته، وكان هو يعرف متى
يبتسم لها كي تتوقف عن السخرية منه.
وفي تلك الزيارة، اكتشفت شيئاً آخر.
العائلة ليست مجرد أشخاص تربطك بهم الأسماء.
إنها أصوات تتعرف إليها مع الوقت، ووجوه تحفظها ذاكرتك، وأيد تمتد نحوك دون
أن تطلب منك شيئاً في المقابل.
لقد أصبح لديّ أب وأم.

والآن، جد وجدة.

وكلما أضفت وجهاً جديداً إلى هذه الحياة، شعرت بأن عالمي الصغير يتسع لقليلاً. لم أكن أعرف إن كنت سأستطيع يوماً أن أنسى العائلة التي تركتها خلفي، لكنني بدأت أفهم أن القلب ليس غرفة ضيقة ال تتسع إل لعدد محدود من الأشخاص. ربما يستطيع أن يحتفظ بالذكريات القديمة، وفي الوقت نفسه، يفتح الباب لذكريات جديدة.

وربما لم يكن ذلك خيانة للماضي.
بل استقراراً للحياة.

زائر. صغير.. ومشكلة كبيرة

لكن دعوني أخبركم عن الحدث الذي غير شكل أيامي أكثر مما توقعت.
بدايته كانت عادية للغاية.

زيارة من الجيران.

ال جيش يفتح المنزل، وال مؤامرة سياسية، وال روح زرقاء ترتدي بدلة سوداء
وتقرر العبث بمصيري مرة أخرى.

مجرد زيارة عائلية بسيطة.

كنت قد بلغت الثالثة من عمري، وبدأت أتحرك بحرية أكبر، وأتكلم بجمل مفهومة،
وأستكشف كل زاوية في المنزل كما لو أنني مالكة الشرعي.

حسناً، من الناحية العملية، لم أكن أملك شيئاً.

لكنني كنت أنصرف كما لو أنني أملك المنزل، والشارع، وربما نصف المدينة.

وفي ذلك اليوم، جاء جيراننا لزيارة والدي، وكان معهم طفل صغير.
حين دخلوا، كنت قريباً من أمي، أستمع إلى حديث الكبار دون اهتمام كبير. لم
تكن أحاديثهم تثير فضولي؛ فقد اعتدت على أن يتحدث البالغون لطوياً عن أشياء
يستطيعون اختصارها في ثالث جمل لو أرادوا.

لكن عندما رأيت الطفل، تغير الأمر.

كان صغيراً، يتحرك بفضول، وينظر إلى الأشياء من حوله بعينين واسعتين. لم يكن
يعرفني، ولم أكن أعرفه، ومع ذلك، وجدت نفسي أراقبه باهتمام.

كان يتحرك بطريقة عفوية، يقترب من شيء ثم يبتعد عنه، ويتسم عندما يلفت
أحدهم انتباهه.

ولسبب لم أستطع تفسيره في البداية، شعرت بالرتياح نحوه.

لم يكن الأمر متعلقاً بشيء فعله على وجه التحديد. لم يقل كلمة مميزة، ولم يقدم نفسه
بطريقة مثيرة للإعجاب، ولم يفعل أي شيء يمكن أن يجعلني أقرر، بعقلانية، أنه
شخص يستحق اهتمامي.

ومع ذلك، كان هناك شيء في تصرفاته يجعلني أبتسم كلما نظرت إليه.

شيء مألوف.

شيء دافئ.

شيء جعلني أشعر بأنني رأيت هذه الروح من قبل، في مكان بعيد ال أستطيع
العودة إليه.

راقبته وهو يقترب مني، ثم ينظر إلى اللعبة التي كنت أمسكها.

مد يده نحوها.

نظرت إلى اللعبة.

ثم إليه.

كان بإمكانني الاحتفاظ بها، بالطبع. لم يكن لدي سبب حقيقي للتخلي عنها، خصوصاً أنني كنت قد قضيت وقتاً طويلاً في إقناع نفسي بأنها ملكي وأن أي شخص يحاول أخذها يحتاج إلى تصريح رسمي مني.

لكنني وجدت نفسي أمدّها إليه.

أخذها، ثم ابتسم لي.

ابتسامة صغيرة، صادقة، ال تحمل أي حسابات.

ابتسامة طفل لم يتعلم بعد كيف يخفي مشاعره خلف الكلمات المهذبة أو النظرات الحذرة.

وفي تلك اللحظة، شعرت بشيء يتحرك في أعماقي.

شيء لم أكن مستعداً له.

فقد رأيت تلك الابتسامة من قبل.

ليس في هذا العالم.

بل في حياة أخرى.

ذكرى من قصر ماركوس

كان القصر هادئاً في ذلك اليوم، أو هكذا بدا لي في البداية. كنت لطفلاً صغيراً، قد بدأت لتوي أعتاد على التدريب الذي يفرضه علي الملك ماركوس. كنت أقضي ساعات طويلة في تعلم أساسيات القتال، وأحاول أن أوازن بين واجباتي في القصر وبين رغبتني في قضاء بعض الوقت بعيداً عن الأوامر والتدريبات.

وكانت حياتي، رغم كل ما فيها من قسوة، ال تزال تحمل لحظات طفولة بسيطة.
في ذلك اليوم، كنت في إحدى ساحات القصر عندما رأيته للمرة الأولى.
آرثر.

لم يكن آرثر الذي عرفته الحقاً الفارس الذي يقف إلى جانبي في ساحات
التدريب، والصديق الذي يستطيع تحويل أكثر المواقف خطورة إلى نقطة سيئة.
كان لطفاً مثلي، ينتمي إلى عائلة فرسان نبيلة، وقد جاء إلى القصر في زيارة برفقة
أفراد من عائلته.

أتذكر أنه كان يتحرك بفضول، وينظر إلى كل شيء كما لو أنه يحاول اكتشاف سر
مخفي خلف جدران القصر.

وحين التقت أعيننا، لم يُبد عليه أي ارتباك.

بل اقترب مني مباشرة.

«هل أنت لوسين؟»

أومأت برأسي.

«نعم.»

نظر إلي لحظة، ثم قال بجدية غريبة:

«سمعت أنك تتدرب بالسيف كل يوم.»

«هذا صحيح.»

عقد ذراعيه، وكأنه يستعد للقاء خطاب عظيم.

«إذن هل تستطيع هزيمة عشرة أشخاص؟»

حدقت فيه.

الشخص الذي استطاع أن يجعلني أضحك حتى في الأيام التي كنت أشعر فيها بأنني محاصر داخل حياة ال تشبهي.

الشخص الذي وقف إلى جانبي عندما احتجت إلى من يفهمني دون أن أشرح له كل شيء.

الشخص الذي مات بين ذراعي، تاركاً خلفه كلمات أخيرة ما زالت تعيش في قلبي.

انتهت الذكرى، لكن أثرها بقي.

عدت إلى الحاضر، إلى منزل والدي، وإلى الطفل الصغير الذي كان يقف أمامي ممسكاً بلبعتي.

كان يتسم بالطريقة نفسها تقريباً.

بالبراءة نفسها.

وبذلك الدفء الذي لم أكن أعلم أنني سأشتاق إليه بهذا القدر.

لم يكن آرثر.

كنت أعرف ذلك جيداً.

لكنه جعلني أتذكره. وجعلني أدرك أن بعض الأشخاص يتركون فينا أثراً ال يحوه الموت، حتى لو تغير العالم كله من حولنا.

رفيق درب جديد

ظلت أنظر إلى الطفل، بينما كان هو لمنشغاً باللعبة التي أعطيته إياها.

كان يحركها بين يديه، ثم يرفع رأسه نحوني بين الحين والآخر، كأنه يتأكد من أنني

ما زلت هنا.
 وجفأة، وجدتي أبتسم.
 لم تكن ابتسامة خزينة هذه المرة.
 وال ابتسامة رجل يحاول إخفاء جرح قديم.
 كانت ابتسامة حقيقية، هادئة، خرجت مني دون أن أضطر إلى إجبار نفسي عليها.
 شعرت بالدفع نفسه الذي شعرت به في حضن أمي، وبشيء يشبه الراحة التي
 وجدتتها عندما احتضنني أبي بعد خطواتي الأولى.
 لكن هذا الدفع كان مختلفاً.
 لم يكن دفع العائلة.
 بل دفع بداية صداقة.
 شيء صغير، لم يتشكل بعد، لكنه كان يحمل في داخله وعداً بأيام لم أعشها.
 نظرت إلى يدي الصغيرتين.
 ثم إلى الطفل.
 وجفأة، عادت إلي كلمات آرثر الأخيرة.
 أتمنى أن تجد صديقاً مقرباً آخر يوماً ما.
 سمّ ابنك الأول آرثر.
 ومزّق ذلك الأمير الخائن إرباً.
 توقفت عند العبارة الأخيرة في ذاكرتي.
 حتى في لحظاته الأخيرة، لم يستطع ذلك الأحق أن يتخلى عن أسلوبه.

كاد قلبي يتقبض من جديد، لكنني أخذت نفساً هادئاً، ونظرت إلى الطفل الذي أمامي.

كان يضحك الآن، وقد رفع اللعبة فوق رأسه، ثم أسقطها على الأرض دون أن يدرك أنه فعل ذلك. انحنى للتقاطها، لكنه فقد توازنه وجلس على الأرض لبدأً من ذلك.

ثم نظرت إلي.

وبدأ يضحك.

ضحكت معه.

لم أستطع منع نفسي.

كان المشهد بسيطاً إلى حد السذاجة، لكنني شعرت بأن شيئاً في داخلي قد انفتح قليلاً.

ربما كان هذا ما أراده آرثر.

لم يكن يريدني أن أظل أسيراً للحظة موته، وال أن أعيش بقية حياتي وأنا أحمل ذنبي كما لو كان عقوبة ال تنتهي.

لقد أرادني أن أواصل السير.

أن أجد شخصاً آخر أستطيع أن أشاركه أيامي، وأن أضحك معه، وأن أختلف معه، وأن أعيش إلى جانبه دون أن أسمح للخوف من الفقد بأن يمنعني من القتراب.

لم أكن أستطيع أن أستبدل آرثر.

ولم أكن أريد ذلك لأصاً.

فبعض الأشخاص ال يمكن ألد أن يأخذ مكانهم، مهما مر الزمن.

لكن ربما كان بإمكانني أن أفتح قلبي لشخص جديد، دون أن أشعر بأنني أخون ذكراه.

مددت يدي نحو الطفل، فاقترب مني، وأمسك بأصابعي الصغيرة.
كان يده دافئة.

نظرت إليه، وقلت في داخلي:

يبدو أنني وجدت رفيق درب جديداً في هذه الحياة.

توقفت للحظة، ثم ابتسمت.

ال أعرف ماذا يخبئ لنا المستقبل، وال أي نوع من الأشخاص سنصبح عندما نكبر.

لكنني أعدك بشيء واحد.

سأكون أفضل صديق لك.

سأقف إلى جانبك عندما تخاف، وسأضحك معك عندما تفرح، وسأساعدك عندما

تتعثر. وإذا جاء يوم حاول فيه العالم أن يؤذيك، فسأفعل كل ما أستطيع كي أحميك.

لم أكن أعرف بعد إن كان هذا الطفل سيصبح أقرب أصدقائي ، لفعاً أم أن الحياة ستأخذنا إلى طرق مختلفة.

لكنني كنت أعرف أنني ال أريد أن أكرر أخطاء الماضي.

في حياتي الأولى، تعلمت كيف أقاتل من أجل الآخرين.

لكنني لم أعلم دائماً كيف أفتح لهم باب قلبي دون خوف.

أما الآن، فقد كنت أملك فرصة جديدة.

ليس لمحو الماضي.

بل ألعيش بطريقة أفضل.

صداقة يراها الكبار

في الجهة الأخرى من الغرفة، كانت سالفيا تراقبنا بابتسامة دافئة.

اقترب فيكتور منها، لقلياً ونظر إلى الطفلين اللذين جلسا على الأرض، يتبادلان اللعبة ويضحكان لأسباب ال يستطيع الكبار فهمها.

قال بصوت منخفض:

«يبدو أنهما انسجما بسرعة.»

ابتسمت سالفيا.

«نيراس ال يتصرف بهذه الطريقة مع كل الأطفال. عادة ما يراقبهم لطوياً قبل أن يقترب منهم.»

«ربما وجد شخصاً يشبهه.»

نظرت سالفيا إلى ابنها، الذي كان يحاول الآن أن يعيد اللعبة إلى يدي صديقه، ثم يضحك كلما سقطت منهما.

«إنهما ظريفان للغاية.»

اقترب أحد والدي الطفل الآخر، وتبادل معهما بعض الكلمات الودية، ثم نظر إلى الصغيرين.

«يبدو أنهما سيكونان أعز الأصدقاء.»

ضحك فيكتور.

«إذا استمرا على هذا الحال، فقد نضطر إلى شراء لعبتين من كل شيء.»

أما سالفيا، فهزت رأسها وهي تبسم.

«لا بأس. المهم أن يكونا سعيدين.»

لم يسمع نيراس حديث الكبار ، لكاماً ولم يكن مهتماً كثيراً بما يقولونه.
كان لمنشغاً بطفل يجلس أمامه، وبابتسامة صغيرة تظهر على وجهه كلما التقت
عيناهما.

كان يشعر بالدفء نفسه الذي عرفه عندما احتضنته أمه للمرة الأولى، وبالطمأنينة
نفسها التي شعر بها عندما أمسك أبي بإصبعه بعد خطواته الأولى.
لكن هذه المرة، كان هناك شيء آخر.
أمل.

أمل صغير، لم يحتاج إلى كلمات كبيرة كي يظهر.
نظر نيراس إلى صديقه الجديد، ثم مد يده نحوه مرة أخرى.
أمسك الطفل بيده.

وفي تلك اللحظة، ابتسم نيراس ابتسامة لم يرها أحد غيره كما ينبغي؛ ابتسامة طفل
صغير، تخفي خلفها روح رجل عاش حياة كاملة، وفقد أعز أصدقائه، ثم مُنح
فرصة لبدأ من جديد.

لم يكن يعرف اسم المستقبل.
ولم يكن يعرف الطريق الذي ينتظرهما.
لكنه كان يعرف أن هذه المرة، حين يجد صديقاً يمشي إلى جانبه، سيحاول أن
يحافظ عليه.

ليس أنه يخشى الوحدة وحدها.

بل أنه يعرف الآن كم يمكن للصداقة أن تجعل الحياة، بكل ما فيها من ألم

وغموض، جديرة بأن تُعاش.
وهكذا، في منزل هادئ، وبين ضحكات طفلين لم يفهما بعد معنى الوعود، بدأت
حكاية صداقة جديدة.
أما في قلب نيراس، فقد ظل وعده القديم حاضراً.
لن أتركك تواجه العالم وحدك.
ليس ما دمت أستطيع الوقوف إلى جانبك.
وكان ذلك وعداً قطعه هذه المرة، ال على قبر صديق رحل، بل أمام صديق بدأ لتوه
رحلته معه.

الفصل الحادي عشر: حين يتعلم الفرسان أبجديات الحياة

لم أكن أتصور يوماً أنني سأجد نفسي جالساً على مقعد صغير، أرتدي زياً مدرسياً، وأحدّق في سبورة كأنها ساحة معركة تنتظر مني اكتشاف أسرارها. لكن ها أنا ذا.

نيراس، الطفل الذي يحمل في داخله ذكريات فارس عاش حياة كاملة، يجلس الآن في الصف الابتدائي، ممسكاً بقلم رصاص أقصر من أصابعه، بينما يحاول المعلم شرح عملية حسابية بسيطة لطفل في السابعة من عمره.

يا للسخرية...

في حياتي السابقة، كنت أحل مسائل عسكرية تتعلق بحركة آلاف الجنود، وأضع خططاً قد تحدّد مصير مملكة بأكملها. أمّا الآن، فعليّ أن أقاوم رغبة ملحة في إخبار المعلم بأن نقل ثلاثة تفاحات من سلة إلى أخرى ال يستحق كل هذا القلق. ومع ذلك، لم أكن أكره الأمر.

على العكس تماماً.

كان في هذا العالم شيء لم أعرفه في حياتي السابقة؛ شيء جعلني أجد متعة غريبة في الجلوس داخل فصل دراسي، والستماع إلى شرح معلم ال يهدّدي بإرسالني إلى ساحة التدريب إذا أخطأت في الإجابة.

في ذلك العالم، كان التعليم مختلفاً تماماً.

تعلمت منذ طفولتي الأولى أن المعرفة سلاح، وأن الجهل قد يقتل صاحبه قبل أن تصل إليه سيوف الأعداء. كانت دراستي في القصر قائمة على الانضباط الصارم،

والتاريخ السياسي، والاستراتيجيات العسكرية، وفنون القتال، وآداب الباط. كل خطأ كان فرصة لتويخ جديد، وكل نجاح كان يعني أن سقف التوقعات سيرتفع أكثر. لم يكن أحد يسألني إن كنت أستمتع بما أتعلّمه. كان السؤال: الوحيد هل أصبحت أفضل من الأمس؟

أما هنا، فقد وجدت عالماً آخر.

أطفال يتعلّمون القراءة من خلال القصص، وآخرون يرسمون لأشكالاً ملوّنة على أوراق بيضاء، ومعلّمون يحاولون تحويل الأرقام والحروف إلى ألعاب صغيرة. لم يكن كل شيء مثاليّاً بالطبع، لكنني شعرت بأن الدراسة هنا تمنح الطفل فرصة الاكتشاف العالم قبل أن تطالبه بمواجهته.

كنت أحب حصص القراءة أكثر من غيرها؛ فالقصص تمنحني فرصة نادرة للهروب إلى عوالم لم أعشها، لبدأ من إعادة استحضار العالم الذي فقدته. كما أحببت حصص الرياضيات، ال أنها صعبة، بل ألّني كنت أستمتع بمشاهدة المعلّم وهو يحاول فهم السبب الذي يجعل لطفاً في عمري ينهي التمارين قبل زملائه بوقت طويل.

كنت أتعلم أحياناً التمهّل حتى ال أثير الشكوك. حسناً، كنت أتعلم ذلك معظم الوقت.

لكن المشكلة الحقيقية لم تكن في الدراسة. بل في صديقي المقرب، أشين. ذلك الفتى كان كارثة صغيرة تسير على قدمين.

في صباح يومي الأول، وقفت أمام المرأة بينما كانت أمي، سالفيا، تعدّل ياقة قميصي المدرسي. كان أبي، فيكتور، يجلس بالقرب من الباب، يحتسي قهوته بهدوء،

ويتابعني بنظرات تحمل مزيجاً من الفخر والقلق.
 قالت أمي وهي تمسح خصلة من شعري الأسود عن جبيني:
 «انظر إليك يا أنيراس لقد كبرت بسرعة. بالأمس فقط كنت أحملك بين ذراعي،
 واليوم ستذهب إلى المدرسة.»
 نظرت إليها من خلال المرأة.
 «أمي لقد أخبرتني بهذا ثالث مرات منذ استيقظت.»
 وضعت يدها على صدرها متظاهرة بالأم.
 «!أوه وهل أصبحت أزجك الآن؟»
 استدرت نحوها بسرعة.
 «!لا ال، لم أقصد ذلك!»
 ضحكت، ثم انحنت وقبلت جبيني.
 «أعرف يا صغيري.»
 تدخل أبي أخيراً، ووضع فنجانته على الطاولة.
 «حسناً يا بطل، تعال إلى هنا للحظة.»
 اقتربت منه، فجلس على ركبتيه حتى أصبح في مستوى عيني. كان شعره الأسود
 مرتباً كعادته، وعيناه الداكنتان تحلمان ذلك الهدوء الذي لطالما جعلني أشعر بأن ال
 شيء في العالم يمكن أن يفاجئه.
 قال بصوت جاد، لكنه لم يخل من الحنان:
 «أريدك أن تتذكر أمرين اليوم.»
 رفعت رأسي باهتمام.

«الأول أن تسمع إلى معلبك، وتحترم زمالك، وال تتصرف وكأنك تعرف كل شيء.»

توقفت عيناه عند وجهي للحظة. كان ذلك التوقف كافياً ليجعلني أدرك أنه يعرفني أكثر مما ينبغي.

«والثاني؟ سألت.»

«إذا واجهت أحداً يتنمر عليك، فال تسمح له بإهانتك أو إيذائك. لكن إياك أن تكون أنت من يبدأ الشجار.»

أومأت برأسي.

تابع أبي:

«ال تستخدم قوتك إثبات أنك أقوى من الآخرين. وإذا استطعت حل المشكلة بالكلم، فافعل. وإذا اضطرت إلى الدفاع عن نفسك،

فافعل ما يلزم لتوقف الأذى، ال لتنتقم.»

صمت ، ل قليلاً ثم ابتسم ابتسامة خفيفة.

«تذكر يا بني ال تكن الشخص الذي يشعل النار، لكن إذا أشعلها أحدهم في وجهك، فال تقف متفجعاً حتى تحترق.»

نظرت إليه بإعجاب.

يا إلهي، كم كان هذا الرجل يجيد الكلام أحياناً!

لو سمعه أحد فرسان مملكتي القديمة، لظن أنه قائد عسكري يلقي خطاباً قبل معركة مصيرية.

قلت بجدية:

«فهمت يا أبي.»

رَبَّتْ على كَتْفِي.

«جيد أريدك أن تعود إلى المنزل وأنت تحمل ذكريات جميلة، ال شكاوى من المدير.»

ابتسمت له.

«سأحاول.»

رفع حاجبه.

«حاول بجدية.»

«حسنًا.»

ثم نهض، وأشار نحو الباب.

«هيا ال أريد أن تتأخر في أول يوم لك.»

غادرت المنزل مع أمي، بينما بقيت كلمات أبي تتردد في ذهني. ال تبدأ الشجار. حسنًا يا أبي.

لن أبدأه.

لكنني لم أعدك بأنني سأدع أحدًا ينيه كما يشاء.

كان الطريق إلى المدرسة مليئًا بالأصوات والحركة. أطفال يسرون برفقة آبائهم، وحقائب صغيرة تتأرجح على ظهورهم، وأمها يوصين أبناءهن بتناول وجباتهم وعدم نسيان زجاجات الماء.

أما أنا، فكنت أراقب المشهد بصمت.

كان الأمر غريباً بصورة جميلة.

في حياتي السابقة، كانت بداية يوم جديد في القصر تعني تدريبات شاقة أو درساً لطوياً أو اجتماعاً مع الملك. أما هنا، فكان الأطفال يتذمرون من الاستيقاظ المبكر، ويتجادلون حول من سيجلس بجانب النافذة، ويتباهون بأقلامهم الجديدة وكأنهم حصلوا على كنز أسطوري.

وبصراحة، كان ذلك أفضل من نصف الاجتماعات التي حضرتها في حياتي السابقة. حين وصلت إلى المدرسة، وجدت الساحة تعج بالأطفال. بعضهم كان يركض في كل اتجاه، وبعضهم تشبّث بأيدي والديه، بينما وقف آخرون أمام البوابة بوجوه شاحبة وكأنهم يُساقون إلى حكم بالإعدام. ثم سمعت بكاءً من جهة المدخل.

كان طفل صغير يرفض ترك ساق أبيه، ويصرخ بأنه ال يريد الدخول. اقتربت منه معلّمة، وحاولت تهدئته، لكن الطفل ازداد تمسكاً بوالده. راقبت المشهد، ثم تمنت:

«لو كان التدريب العسكري في مملكتي القديمة يبدأ بهذه الطريقة، الحتجنا إلى جيش كامل من المربيّات.»

سمعت ضحكة بجاني.

«أنت تتحدث مع نفسك مجدداً، أليس كذلك؟»

التفت.

وهناك كان أشين.

شعره غير المرتب، وابتسامته الواثقة، وعيناه اللتان تحمالن ذلك البريق المشاكس. للحظة، شعرت بأن الزمن يسخر مني عمداً. لم يكن يشبه آرثر في مالهه تماماً، لكنه

كان يشبهه في شيء أعمق، في طريقته في الوقوف وكأنه ال يعرف الخوف، وفي ابتسامته التي تسبق المصائب، وفي تلك الطاقة الغريبة التي تجعلك تشعر بأنه قادر على تحويل أكثر الأيام ملأً إلى فوضى ال تُنسى.

كان آرثر كذلك.

يبتسم ، لأوأ ثم يفكر في العواقب الحقاً.
وأحياناً ال يفكر فيها مطلقاً.

قال أشين وهو يقترب مني:

«ما الأمر؟ هل تخاف من المدرسة؟»

نظرت إليه ببرود.

«أخاف؟ أنا؟»

«أجل يمكنك أن تخبرني. لن أضحك عليك.»

«أنت تضحك الآن.»

«ألن وجهك مضحك.»

تنهدت.

يا للروعة.

لم يمض وقت طويل على بداية حياتي الجديدة، وقد وجدت نسخة أخرى من آرثر مستعدة لإفساد سالي النفسي.

قلت له:

«إذا واصلت الكلام، فسأخبر المعلّمة أنك أكلت الحلوى التي أحضرتها أمك لك قبل أن تصل إلى المدرسة.»

اتسعت عيناه.

«كيف عرفت؟!»

نظرت إليه بصمت.

ثم نظرت إلى يديه.

كان يمسك بقطعة حلوى صغيرة، وعلى طرف فمه أثر واضح من الشوكولاتة.

أغمض عيني لحظة، ثم التهم ما تبقى منها بسرعة.

«لم تر شيئاً.»

ضحكت رغماً عني.

لم أكن أعرف إن كان أشين يشبه آرثر حقاً، أم أنني كنت أبحث عن صديقي القديم في كل وجه جديد أقابله.

لكنني كنت أعرف أمراً واحداً.

وجوده بجانبني جعل هذا العالم يبدو أقل غرابة.

وحين رن الجرس، دخلنا الفصل مع بقية الأطفال.

كانت الفصول أكثر إشراقاً مما توقعت. نوافذ واسعة تسمح لضوء الشمس بالتسلل إلى الداخل، وستائر تتحرك برفق مع الهواء، ومقاعد صغيرة مرتبة أمام سبورة كبيرة. على الجدران علقت رسومات ملونة وحروف وأرقام، وفي زاوية الفصل رف مليء بالقصص المصورة.

اخترت مقعداً قرب النافذة.

لم أكن أريد الجلوس في الخلف حتى ال أبدو كأنني أهرب من الدرس، ولم أكن

أريد الجلوس في الأمام حتى ال أضطر إلى الإجابة عن كل سؤال.
حل وسط مناسب.

جلس أشين بجاني، وألقى حقيته على الطاولة.
«أراهن أنك ستصبح الطالب المفضل لدى المعلّمة.»
«وأنا أراهن أنك ستصبح سبباً في إصابتها بالصداع.»
ابتسم بفخر.

«إذن نحن فريق مثالي.»

قبل أن أجيبه، دخلت المعلّمة ورحبت بنا. بدأت تطلب من الأطفال التعريف بأنفسهم، واحداً تلو الآخر.

كان بعضهم يتحدث بحماس عن ألعابه المفضّلة، وبعضهم يخبرنا عن حيواناته الأليفة، بينما وقف طفل صغير أمام الفصل عاجزاً عن الكلام، حتى أحمر وجهه وعادت الدموع تتجمع في عينيه.

لم يسخر منه أحد، بل ساعدته المعلّمة على العودة إلى مقعده، وأخبرته بأنه يستطيع المحاولة مرة أخرى حين يشعر بالاستعداد.
راقبت ذلك باهتمام.

في عالمي القديم، كان التردد يُعامل أحياناً كعالمة ضعف، وكان على الطفل أن يتعلم إخفاء خوفه قبل أن يتعلم فهمه.

أما هنا، فقد رأيت معلّمة تمنح لطفاً الوقت الذي يحتاج إليه دون أن تجعله يشعر بأنه أقل من الآخرين.

ابتسمت دون أن أشعر. ربما لم يكن هذا العالم مثاليًا، لكنه منحني فرصة أرى أشياء لم أعرفها من قبل.

ومع مرور الساعات، وجدت نفسي أستمع بالدروس . لفعاً حتى حصة الرسم، التي ظننت في البداية أنها مضيعة للوقت، جعلتني أكتشف أن استخدام الألوان أكثر صعوبة مما يبدو.

رسمت قلعة.

ثم أضفت إليها سوراً دفاعياً، وبرج مراقبة، وممرًا جانبيًا للهروب. حدقت المعلبة في الورقة لطويًا.

«يا نيراس، لماذا وضعت كل هذه الجدران حول القلعة؟»

أجبت بعفوية:

«ألن المدخل الرئيسي نقطة ضعف واضحة.»

ساد الصمت.

نظر أشين إلى الرسم، ثم إلي، ثم رفع يده.

«!معلبة أعتقد أن نيراس يحتاج إلى اللعب أكثر.»

أدريت رأسي نحوه ببطء.

سأجعلك تندم على هذا يا أشين.

ابتسم لي ابتسامة بريئة، تلك الابتسامة التي كان آرثر يستخدمها قبل أن يورطني في مشكلة.

يا إلهي، لقد اشتقت إلى ذلك الأحق.

لم أكن أعرف أن أجمل ما في ذلك اليوم سينتهي قبل انصرافنا بقليل.

كنت أسير في الممر برفقة أشين، حين سمعت صوت بكاء خافتًا يأتي من قرب أحد الجدران.

توقفت.

لم يكن البكاء مرتفعاً، بل كان من ذلك النوع الذي يحاول صاحبه إخفائه عن الجميع، وكأنه يخجل من أن يراه أحد ضعيفاً.
التفتُ نحو مصدر الصوت.

كانت هناك فتاة صغيرة تقف بالقرب من النافذة، تخفض رأسها وتمسح دموعها بظهر يدها. كان شعرها بنيّاً ناعماً، يتدلّى حول وجهها، وقد ربطت بعض خصائله برباطات شعر ملوّنة.

كانت تُدعى فريسيا. عرفت اسمها ألّنا كذا في الفصل نفسه، وألّنا كانت من الأطفال الذين يشكرون المعلّمة كلما ساعدتهم، ويعيدون الأقالم التي يجدونها على الأرض إلى أصحابها، ويبتسمون حتى لمن ال يبادلهم البتسامة.

كانت طبيبتها واضحة في أبسط تصرفاتها؛ من الطريقة التي تتحدث بها إلى الطريقة التي تفسح بها المجال لغيرها، حتى حين ال يكون هناك سبب يدعوها إلى ذلك.
والآن، كانت تبكي وحدها.

أمامها وقف فتى من صفّنا، يشير إلى شعرها ويضحك.
«هل اشتراها لك؟» أبوك؟ سأل ساخرًا. «إنها تبدو! سخيفة هل ظننت أنك ستصبحين أميرة بهذه الأشياء؟»

شدّت فريسيا يديها الصغيرتين حول حقيبتها.

«إنها جميلة.. أبي هو من اشتراها لي.»

ضحك الفتى أكثر.

«إذن فأبوك ال يعرف اختيار الأشياء الجميلة!»

ارتجفت شفتها، وانهمرت دموعها من جديد.

شعرت بشيء بارد يستقر في صدري.

لم يكن الأمر مجرد غضب من فتى يسخر من فتاة. لقد رأيت هذا النوع من القسوة من قبل، وإن اختلفت الوجوه والملابس.

في حياتي السابقة، كنت فارساً. تعلمت أن القوة ليست مجرد القدرة على إسقاط خصمك، بل مسؤولية تجاه من ال يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

ولم أكن أنوي أن أرى شخصاً يبكي أمامي وأتظاهر بأنني لم أسمع شيئاً.

خطوت إلى الأمام.

لكن أشين أمسك بطرف كمي.

«نيراس ماذا تفعل؟»

أجبتة دون أن أرفع عيني عن الفتى:

«شيء ينبغي أن يحدث.»

«أيك قال أأل تبدأ الشجار.»

نظرت إليه للحظة.

«أتذكر ذلك جيداً.»

ثم تقدمت حتى وقفت بجانب فريسيا.

رفع الفتى رأسه نحوي، وقد بدا منزجاً ألني قاطعت تسليته.

«ماذا تريد؟»

نظرت إلى رباطات الشعر، ثم إليه.

«أريد أن أفهم شيئاً.»

رفع ذقنه بتحدٍّ.

«ماذا؟»

قلت بهدوء:

«على الأقل، والداها ما زال معاً.»

توقفت ابتسامته.

وتوقف أشين عن التنفس لثانية.

أما أنا، فكنت أعرف أنني ألقىت عملة في الهواء، ولم أكن أعرف أي وجه سيظهر.

كانت منطقتنا تعاني ارتفاعاً ملحوظاً في معدلات الطالق. ولم أكن أعرف شيئاً عن عائلة هذا الفتى، لكنني راهنت على أن كلماتي ستصيب موضعاً حساساً لديه.

كانت فرصة نجاح المزحة خمسين في المئة.

وفشلها خمسين في المئة.

ولألسف، لم تكن لدي موهبة المقامرة.

تغير وجه الفتى فجأة، واختفت مالمح التحدي عنه. انخفضت عيناه، وارتجفت شفّته، ثم بدأ يبكي.

بصراحة، لم أتوقع أن يتأثر بهذه السرعة.

وقفت أحدّق فيه، وأنا أحاول استيعاب ما حدث.

لقد كنت أستعد لجدال، ال لمشهد بكاء جديد!

لكن الفتى رفع رأسه فجأة، وكانت عيناه حمراوين من الدموع.

«...أنت أنت ال تعرف شيئاً!»

أصابته لكمة مباشرة أسقطته على الأرض.
تجمّد كل شيء.
نظرت إلى الفتى الممدّد على الأرض، ثم إلى أشين الذي وقف أمامي، يده مرفوعة
، لقليلًا ومالمحه تجمع بين الغضب والفخر.
ثم التفت إلي.
«كنت ستدع هذا الأحق يضربك طوال اليوم؟»
رمشت بعيني.
«كنت أحاول تهدئته.»
«بوجهك؟»
«كنت أتفادى ضرباته.»
«أجل الحظت ذلك. كنت تتحرك كأنك ترقص!»
نظرت إلى قبضته، ثم إلى الفتى الذي بدأ ينهض وهو يبكي.
«وأنت قررت أن ترقص بقبضتك؟»
ابتسم أشين.
«كانت رقصة قصيرة.»
لم أتمالك نفسي، فضحكت.
لكن ضحكتي توقفت حين رأيت فريسيا تقف خلفنا، تمسح دموعها بصمت. كانت
تنظر إلينا بدهشة، وكأنها لم تصدق أن أحداً قرر الوقوف إلى جانبها.
التفتُ إليها، وخفّضت صوتي.

«هل أنت بخير؟»

أومأت برأسها ببطء.

«...نعم شكرًا.»

نظرت إلى رباطات شعرها.

«إنها جميلة.»

رفعت عينيها نحوي.

«حقًا؟»

«بالطبع لو لم تكن جميلة، لما أثارت كل هذا الاهتمام.»

ابتسمت ابتسامة صغيرة، رغم بقايا الدموع على خديها.

أما أشين، فاقترب مني وهمس:

«هل هذه طريقتك في مواساة الناس؟»

همست بدوري:

«هل تريدني أن أتركك تجرب؟»

رفع يديه مستسلماً.

«لا شكرًا. أنا أحب رباطات الشعر كما هي.»

لم تمر دقائق طويلة حتى استدعانا المدير إلى مكتبه.

كنت جالسًا على أحد الكرسيين أمام مكتبه، وإلى جانبي أشين، بينما جلس الفتى الآخر في الطرف المقابل. كان ال يزال يمسح وجهه بكم قيصه، وينظر إلينا من حين

إلى آخر بنظرات غاضبة ومصدومة.
 أما أنا، فكنت أحاول ترتيب أفكاري.
 لم أبدأ الشجار، لكنني أطلقت مزحة قاسية.
 لم أضربه، لكن أشين فعل.
 وفريسيا كانت تبكي، وهو ما يعني أن الأمر لن ينتهي بمجرد اعتذار بسيط.
 تنهدت في داخلي.
 أبي، يبدو أنني سأعود إلى المنزل ومعني شكوى بعد كل شيء.

في مكان آخر، كان فيكتور يجلس خلف مكتبه، منهمكاً في مراجعة أوراق قضية تشغله منذ أيام.
 كان مكتبه مرتباً، وأمام النافذة تتسلل أشعة الشمس إلى الغرفة، بينما انشغل هو بقراءة التفاصيل الصغيرة التي قد تغير مسار القضية. كان من النوع الذي يحب أن يقطع عمله أحد دون سبب مقنع؛ فحين يركّز على أمر، يصعب انتزاع انتباهه منه.
 طرقت امرأة الباب، ثم دخلت وهي تحمل ملفاً.
 «فيكتور هناك من يتصل.»
 لم يرفع عينيه عن الأوراق.
 «أنت تعرفين أنني أحب المكالمات حين أكون منهمكاً في العمل.»
 اقتربت المرأة من المكتب، وقالت بنبرة تحمل شيئاً من التسلية:
 «أعرف لكن هذه المكالمات من المدرسة.»
 توقفت يده عن تقليب الأوراق.

طويل بما يكفي لتشعر المرأة واقفة بجانب المكتب بالفضول.
ثم رفع فيكتور يده إلى وجهه، وفرك جسر أنفه بإبهامه وسبابته.
«...أصح أشين.»

لم يستطع المدير إخفاء ارتباكهم.
«عفوًا؟»

«لا شيء. المهم، لدي سؤال واحد.»

«تفضل سيد فيكتور.»

قال فيكتور بجدية تامة:

«هل بدأ ابني الشجار، أم أنه أنهاه؟»

تردد المدير لقليلًا.

«...حسنًا وفقًا لما سمعته من الأطفال، فإن ابنك لم يبدأ الشجار، لكنه سخر من

التلميذ، ثم حاول التلميذ ضربه، وكان صديقه هو من

وجه اللكمة.»

قاطع فيكتور كلمه فوراً:

«إذن ليست هذه مشكلتي.»

تجمدت المرأة في مكانها.

أما المدير، فبدأ وكأنه لم يسمع الجملة على نحو صحيح.

«لكن سيد فيكتور، ال يمكننا تجاهل ما حدث!»

استند فيكتور إلى كرسيه، وقال بنبرة هادئة للغاية:

«يا سيدي، أنا ال أشجع ابني على السخرية من الآخرين، وسأتحدث معه بشأن ذلك. لكنني لن أوبّخه لأنه لم يقف متفرجاً بينما يحاول أحدهم العتداء عليه.»

ثم أضاف:

«أما صديقه، فسأترك لكم مسألة تفسير سبب وجود قبضة طفل على وجه طفل آخر.»

رفعت المرأة يدها إلى فمها لتخفي ابتسامتها.

تابع فيكتور:

«وكما يقول المثل، من جلبها لقدميه، فالعصا إليه.»

«لكن —»

«مع السائلة يا سيد المدير.»

وأغلق الهاتف.

ببساطة.

بهدوء.

وبال أدنى شعور بالذنب. ظل فيكتور يحدّق في السماعة لثانية، ثم أعادها إلى مكانها، وعاد إلى أوراقه كأن شيئاً لم يحدث.

نظرت إليه المرأة بدهشة.

«هل انتهيت من المكالمة بهذه السرعة؟»

أجاب وهو يقلب الصفحة:

«لقد أخبرني أن ابني لم يبدأ الشجار.»

وواضحاً بما يكفي الشعر بأنني أريد أن أدفن وجهي بين يدي وأضحك في الوقت نفسه.

وضعت يدي على فمي، لمحاواً كبح ضحكتي. لم أكن أريد أن أبدو وحقاً أمام المدير، لكن عبارة «ابني فتى» راق كانت تتردد في رأسي بالرحمة. أما أشين، فكان ينظر إلى التلميذ الآخر بابتسامة عريضة، وكأنه فاز في معركة تاريخية.

مال نحوه ، لقليلًا وقال:

«أرأيت؟ هذا ما يعنيه أن يكون لك أب.»

رفع الفتى رأسه نحوه، وقد بدا مصدوماً إلى درجة أنه نسي البكاء للحظة. «ماذا؟»

أجاب أشين بفخر:

«أب يقف إلى جانب ابنه.»

ثم أشار إلى نفسه.

«وأنا أيضاً لدي أب، بالمناسبة.»

كدت أختنق من الضحك.

يا لهذا الأحمق!

كان المدير قد استنفد ما يكفي من الصبر خالل الدقائق الماضية، ف ضرب سطح مكتبه بيده.

«كفى!»

استقام أشين في جلسته فوراً، بينما حاولت استعادة مالحي الجادة.

نظر المدير إلينا واحداً تلو الآخر، ثم قال بنبرة ال تقبل النقاش:

«عودوا إلى فصولكم. وسأحدث مع كل واحد منكم على حدة بشأن ما حدث.»

نهضنا من مقاعدنا.

وقبل أن نخرج، التفتُ نحو الفتى الذي حاول ضربي.

ترددت لحظة، ثم قلت:

«لم يكن ينبغي لي أن أسخر منك بشأن عائلتك. أنا آسف على ذلك.»

نظر إلي بصمت.

لم يعتذر هو، ولم أطلب منه أن يفعل. لم تكن الأمور بهذه البساطة، ولم يكن اعتذاري يعني أن ما فعله بفريسيا أصبح مقبواً.

لكنني كنت أعرف أنني تجاوزت حدًا لم يكن ينبغي لي تجاوزه. خرجنا من المكتب، وكان أشين يسير إلى جانبي ويده خلف رأسه.

«إذن ماذا تعلّمنا؟ اليوم؟ سألني.

نظرت إليه.

«أنك تضرب الناس أسرع مما تفكر.»

ضحك.

«خطأ تعلّمت أن والدك يستطيع إنهاء مشكلة كاملة بمكالمة هاتفية.»

هزرت رأسي.

«وأنت تعلّمت أنني أستطيع تفادي أربع لكّات قبل أن تتدخل.»

«خمسة.»

«أربع.»

«كنت سأضربه بعد الخامسة.»

«هذا ليس إنجازاً.»

ابتسم ابتسامة عريضة.

«بالنسبة إليّ، هو إنجاز.»

واصلنا السير في الممر، وأصوات الأطفال تتردد حولنا من الفصول المجاورة. كان يومي الأول قد انتهى بطريقة لم أتوقعها، ومع ذلك، لم أشعر بالندم على تدخله حين رأيت فريسيا تبكي.

فقد كنت قد قطعت وعداً في حياتي السابقة.

وعداً لصديق رحل وهو يطلب مني أل أسمح للعالم بأن يجعلني وحيداً مرة أخرى، وأل أتحلى عن الأشخاص الذين يمكن أن يصبحوا أعزاء عليّ.

لم أستطع إنقاذ آرثر.

ولم أستطع تغيير النهاية التي عرفتها في ذلك العالم.

لكنني كنت أستطيع أن أختار ما أفعله في هذا العالم.

أن أكون أفضل من أخطائي، حتى حين أرتكبها.

أن أتعلم كيف أدافع عن الآخرين دون أن أجرحهم بكلماتي. وأن أتذكر أن الفروسية ال تبدأ حين يحمل المرء سيفاً، وال تنتهي حين يضعه جانباً.

أحياناً، تبدأ الفروسية بطفل يرى فتاة تبكي، فيقرر لاً يواصل السير وكأنه لم ير شيئاً.

وأحياناً، تنتهي الحكاية بلكمة واحدة من صديق ال يعرف متى يتوقف.

نظرت إلى أشين.

«على فكرة، سأخبر أباك بما فعلت.»

اختفت ابتسامته في لحظة.

«...نيراس يا صديقي العزيز، نحن أخوان، أليس كذلك؟»

ابتسمت له.

«بالطبع.»

«إذن لن نخبره؟»

«سأخبره بكل التفاصيل.»

توقف في مكانه، وحدّق بي بخيانة مصطنعة.

«لقد وثقت بك!»

واصلت السير وأنا أضحك.

«كان ينبغي أن تفكر في ذلك قبل أن تستخدم قبضتك لبدأ من عقلك.»

لحق بي وهو يحتاج، وانطلقنا معاً نحو الفصل.

لم أكن أعرف ما الذي تحبّه لي هذه الحياة الجديدة، وال إن كنت سأتمكن يوماً من نسيان الحياة التي فقدتها.

لكنني كنت أعرف شيئاً واحداً.

هذه المرة، لم أكن أسير وحدي.

وكان ذلك، بالنسبة إلى فارس دفن صديقه بيديه، بداية تستحق أن يعيش من أجلها.

الفصل الثاني عشر: ألعاب، عقوبات، ووليمة ال تنتهي

لو سألني أحدهم عن أكثر ما تغير في حياتي الجديدة، فلن أقول إنني ولدت من جديد، أو إنني حصلت على عائلة تمنحني الحب الذي افتقدته في حياتي السابقة، أو حتى إنني اكتشفت عالماً تتجاوز فيه الآلات حدود ما كنت أعده ممكناً. بل سأقول إنني اكتشفت أن الذهاب إلى المدرسة أصعب مما توقعت، وأن تكوين الصداقات يحتاج إلى صبر يفوق صبر القادة في ساحات الحروب، وأن بعض الجدات يمتلكن قدرات مرعبة ال تعترف بها أي منظمة علمية في هذا العالم. لكن دعوني أبدأ من البداية. **.*. الدراسة في الأشهر الأولى، كنت أراقب زمالي كما يراقب قائد عسكري جيشاً غريباً للمرة الأولى. أحاول فهم طباعهم، وما يحبونه، وما يكرهونه، وكيف تتشكل الصداقات بينهم. في حياتي السابقة، كان الأمر أبسط من ذلك بكثير؛ فالقصر يفرض على الجميع أدواراً واضحة، والنبلاء يتعلمون منذ صغرهم كيف يتحدثون، ومتى يصمتون، وكيف يخفون نواياهم خلف ابتسامات مهذبة. أما الأطفال هنا، فلم يكونوا يخفون شيئاً تقريباً. إذا أحبك أحدهم، جلس بجانبك في اليوم التالي وكأنكما تعرفان بعضكما منذ عشر سنوات. وإذا غضب منك، أخبرك بأنك أحمق، ثم عاد بعد خمس دقائق ليسألك إن كنت تريد اللعب معه. يا لها من حياة ال حسابات سياسية، وال مؤامرات داخل القصر، وال رسائل سرية تنتقل بين أيدي الخدم. حسناً، باستثناء أشين.

ذلك الفتى كان قادراً على تحويل أبسط الأمور إلى حادثة تستحق التحقيق. ومع ذلك، لم أكن أرغب في أن تكون صداقتي معه هي الصداقة الوحيدة التي أملكها. كان جزء مني يخشى التعلق بالآخرين. ربما ألنني عرفت في حياتي السابقة معنى أن يصبح شخص ما جزءاً من روحك، ثم يرحل تاركاً فراغاً ال تستطيع الكلمات مآله.

لكنني كنت أعرف أيضاً أن العيش هرباً من الألم ليس حياة حقيقية. لذلك حاولت القتراب من زمالي تدريجياً. شاركت بعضهم ألعابهم، وساعدت آخرين في فهم الدروس، واستمعت إلى حكاياتهم عن عائلاتهم وعطالتهم وأحلامهم الصغيرة. اكتشفت أن أحدهم يريد أن يصبح طبيباً لأنه يخاف من رؤية الناس يتألمون، وأن آخر يحلم بأن يصبح لعب كرة قدم، بينما أراد طفل ثالث أن يصبح سائق شاحنة لأنه يحب صوت المحرك. لم أضحك على أي منهم. ففي نهاية المطاف، كنت أنا نفسي أحمل أحلاماً لم أعد أعرف إن كان بإمكانني تحقيقها. وكانت هناك فريسيا أيضاً. بعد حادثة رباطات الشعر، أصبحت أكثر هدوءاً حين تتحدث معي، لكنها لم تعد تبكي كلما اقترب منها أحد. كانت تبسم أحياناً، وتشاركنا بعض الأنشطة، وإن ظلت تميل إلى الجلوس في مكان هادئ بعيداً عن الضوضاء. لم أكن أحاول أن أجعلها مدينة لي بشيء. لم أكن أريد أن تشعر بأنها مطالبة برد الجميل لمجرد أنني تدخلت في ذلك اليوم.

كنت أريد فقط أن تتمكن من الذهاب إلى المدرسة دون أن تخشى أن يتحول شيء تحبه إلى سبب للسخرية منها. أما أشين، فقد استمر في التصرف كأنه حارس شخصي غير رسمي لي، رغم أنني لم أطلب منه ذلك قط. كان يعلن أحياناً أنه سيحميني من كل المتنمرين في المدرسة، ثم يختبئ خلفي عندما تظهر حشرة طائرة في الفصل. ال تسألوني كيف يمكن لشخص أن يلکم فتى أمام الجميع دون تردد، ثم يصرخ بسبب فراشة. لقد توقفت عن محاولة فهمه. ومع مرور الوقت، بدأت أستمع بالحياة المدرسية. لفعاً لم تعد الفصول مجرد أماكن أتعلم فيها القراءة والكتابة، بل أصبحت مساحات أتعلم فيها كيف أكون لطفاً بين الأطفال. لم يكن ذلك سهلاً دائماً. فالعقل الذي عاش حياة كاملة ال يستطيع أن ينسى فجأة كل ما مر به، لكنني بدأت أكتشف أن الحياة ال تتكون من المعارك الكبيرة وحدها. أحياناً، تكفي ضحكة صديق، أو قصة مضحكة، أو إجابة صحيحة تجعل المعلم يبتسم، لتتح يومك قيمة ال تتوقعها. وبالطبع، لم يكن كل شيء وردياً. ففي نهاية ذلك اليوم الذي شهد حادثة

المتنمر، كنت أعرف أنني سأخضع الاستجواب منزلي ال يقل صرامة عن استجوابات القصر الملكي. والأسوأ؟ أن أبي ال يحتاج إلى كرسي تعذيب كي يجعلك تعترف. يكفي أن ينظر إليك فحسب.

استجواب المساء

عدت إلى المنزل، وخلعت حذائي عند المدخل، ثم وضعت حقيقتي في مكانها. كانت رائحة الطعام تنبعث من المطبخ، وكنت على وشك التسلل إليه بحثاً عن شيء آكله قبل أن تبدأ أُمِّي في سؤالي عن يومي، حين سمعت صوت أبي من غرفة الجلوس.

«نيراس تعال لقليلاً.»

توقفت. نظرت نحو المطبخ، ثم نحو غرفة الجلوس. وداعاً، أيها الطعام. لقد كنت لأمّاً. لجمياً دخلت الغرفة، فوجدت أبي جالساً على الأريكة، وقد وضع هاتفه على الطاولة. كان هادئاً كعادته، وهذا تحديداً ما جعل الأمر مقلّقاً. جلست أمامه، ووضعت يدي على ركبتني. قال:

«اتصل بي مدير مدرستك اليوم.»

أومأت.

«أعرف يا أبي.»

«إذن هل تريد أن تخبرني بما حدث من وجهة نظرك؟»

أخذت نفساً قصيراً، ثم بدأت أشرح له ما حدث منذ اللحظة التي رأيت فيها فريسيا تبكي، وكيف سخر الفتى من رباطات شعرها، ثم كيف قررت التدخل. استمع إلي دون أن يقاطعني. وعندما وصلت إلى المزحة التي ألقيتها بشأن والدي الفتى، رفع حاجبه. لقليلاً توقفت.

«أعترف بأنني تماديت في ذلك الجزء.»

«تعتقد ذلك؟»

«نعم لم أكن أعرف شيئاً عن ظروف عائلته، ولم يكن من حقي استخدام أمر شخصي كهذا للسخرية منه.»

ظل أبي ينظر إليّ، ثم أشار لي بمتابعة الحديث. أخبرته كيف حاول الفتى ضربي، وكيف تفاديت لكأته، وكيف تدخل أشين وأسقطه أرضاً. وعندما انتهيت، أسند أبي ظهره إلى الأريكة، وعقد ذراعيه.

«إذن دعني أفهم الأمر. رأيت فتى يسخر من فتاة، فتدخلت للدفاع عنها. ثم استخدمت ضده الأمر نفسه الذي استعمله إيلدائها، فبكى،

وحاول ضربك، وتفاديت ضرباته، وبعدها جاء أشين ووجه إليه لكمة.»

«هذا ملخص دقيق.»

«ملخص دقيق للغاية.»

كانت نبرة صوته هادئة، لكنني بدأت أشعر بأنني أمام امتحان شفهي ال أملك إجاباته كاملة. سألني:

«لماذا اخترت السخرية من عائلته؟»

فكرت لقليلاً قبل أن أجيب.

«ألنني لاحظت أنه يحاول إيذاء فريسيا بشيء يبدو مهماً بالنسبة إليها. رباطات الشعر هدية من والدها، وكان يستخدمها لجعلها

تشعر بالجل من شيء تحبه. لذلك أردت أن أجعله يشعر بالشيء نفسه.»

«أي أنك أردت أن ترد له الأذى.»

«أردت أن أجعله يتوقف.»

«وهل كان عليك أن تفعل ذلك بتلك الطريقة؟»

خفضت رأسي لقليلًا.

«لا.»

ساد الصمت بيننا للحظات. ثم قال أبي:

«سأكون صريحاً معك يا نيراس. أعجبنى أنك لم تقف متفرجاً بينما كان شخص آخر

يتعرض للإهانة. وأعجبنى أنك لم تستخدم قوتك

الجسدية لإسقاط الفتى مجرد أنه أغضبك.»

رفعت رأسي. لكنه تابع قبل أن أبتسم:

«لكن أسلوبك كان ملتوياً.»

اختفت ابتسامتي قبل أن تولد.

«ملتوي؟»

«نعم لقد وجدت نقطة ضعف محتملة لديه، ثم ضغطت عليها عمداً. ال أعرف إن

كنت قد أصبت الحقيقة أم ال، لكنك استخدمت أمراً

شخصياً كسلاح دون أن تعرف عواقبه.»

تنهدت.

«أعرف ولهذا اعتذرت منه.»

أوماً أبي.

«وهذا تصرف جيد. لكنني أريدك أن تفهم الفرق بين أن توقف شخصاً عن إيذاء

الآخرين، وبين أن تجعله يتألم أنك قادر على

ذلك.»

نظرت إليه بصمت. كان كالمه منطقياً، وهذا ما أزعجني. لقلياً كنت قد اعتدت في حياتي السابقة على التعامل مع التهديدات بسرعة وحسم. في ساحات القتال، لم يكن أمامك دائماً وقت لتفهم مشاعر خصمك أو تدرس ماضيه. لكنني لم أكن في ساحة قتال، ولم يكن كل شخص يسيء التصرف عدواً يجب إخضاعه. قال أبي: «يمكنك أن تكون حازماً دون أن تكون قاسياً. ويمكنك أن تدافع عن شخص دون أن تحوّل الأمر إلى معركة إثبات من يستطيع إيذاء الآخر أكثر.»

ثم ابتسم ابتسامة صغيرة.

«ومع ذلك، سأعترف بشيء.»

نظرت إليه بجدري.

«ما هو؟»

«لقد كانت مزحتك فعالة للغاية.»

حدّقت فيه. ثم انفجرت ضاحكاً. غطّى أبي فمه بيده لمحاوّا الحفاظ على جديته، لكنه لم ينجح تماماً. قلت:

«إذن أنت تعترف بأنها نجحت!»

«أنا أعترف بأنها نجحت في إيقافه عن السخرية من الفتاة في تلك اللحظة. لكن النجاح ال يجعل كل وسيلة صحيحة.»

«، حسناً حسناً.»

«وال يعني ذلك أنني أريدك أن تكررهما.»

«فهمت.»

توقف ، ل قليلاً ثم أضاف:

«أما أشين، فسأتحدث معك بشأنه الحقاً. أريد أن أعرف إن كان يفهم أن الدفاع عن الآخرين ال يعني أن يوجه لكمة إلى وجه كل

شخص يزججه.» ابتسمت.

«حظاً موفقاً يا أبي.»

ضيق عينيه.

«لماذا أشعر بأنك تعرف شيئاً ال أعرفه؟»

«ألنه أشين.»

أطلق أبي زفرة طويلة، ثم هز رأسه.

«أظن أنني فهمت.»

نهضت من مكاني، لكن صوته أوقفني قبل أن أصل إلى الباب.

«نيراس.»

التفتُ إليه.

«نعم؟»

قال بجدية:

«أنا نفور بك ألنك لم تتجاهل معاناة فريسيا. لكنني سأكون أكثر نفراً بك حين تتعلم كيف تفعل الصواب دون أن تضطر إلى جرح

شخص آخر في الطريق.»

ابتسمت له.

«سأحاول يا أبي.»

اقترب مني وربّت على رأسي.

«هذا كل ما أطلبه.»

خرجت من الغرفة وأنا أفكر في كلماته. كان غريباً أن أتعلم في هذه الحياة أشياء لم أتعلّمها حين كنت فارساً. هناك، كنت أعرف كيف أواجه السيوف، وكيف أقرأ تحركات الخصوم، وكيف أضع خطة قبل أن يبدأ القتال. أما هنا، فقد كنت أتعلّم شيئاً أصعب بكثير. كيف أختار كلماتي.

في الجهة الأخرى من المدينة

كان أشين يعيش مساءً أقل هدوءاً بكثير من مسائي. وقف أمام والديه في غرفة الجلوس، بينما جلس أبوه على كرسيه واضعاً يديه فوق ركبتيه، ووقفت أمه بجانب النافذة، وقد عقدت ذراعها أمام صدرها. كان أشين يحاول أن يبدو بريئاً. وقد فشل لفشاً ذريعاً. قال أبوه:

«هل يمكنك أن تشرح لي لماذا اتصل مدير المدرسة وأخبرني أنك كدت تحطّم فك أحد التلميذ؟»

رفع أشين إصبعه.

«لأوأبي، أعتقد أن كلمة تحطيم مبالغ فيها قليلاً.»

لم يرمش والده.

«أشين.»

«ربما كسراً بسيطاً؟»

«أشين!»

خفض الفتى إصبعه.

«حسنًا لن نختلف على المصطلحات.»

وضعت أمه يدها على جبينها.

«يا إلهي، هذا الطفل سيجعلني أشيب قبل أواني.»

قال أشين بسرعة:

«لكنني لم أبدأ الشجار!»

أجابه والده:

«وهل هذه هي القاعدة الوحيدة التي تعلمتها في حياتك؟ لاأ تبدأ الشجار؟»

فكر أشين لقليلًا.

«إنها قاعدة مهمة.»

«أشين!»

«حسنًا حسنًا!»

تنهد الفتى، ثم قال:

«كان ذلك التلميذ يسخر من فتاة، ونيراس تدخل ليدافع عنها. ثم حاول الفتى

ضرب نيراس، لكنه كان يتفادى ضرباته، فقررت

التدخل.»

نظر إليه والده لطويًا.

«وقررت التدخل بقبضة يدك؟»

«كانت أسرع وسيلة.»

«أسرع وسيلة إرسالك إلى مكتب المدير!»

تدخلت أمه:

«كان بإمكانك أن تستدعي معلماً.»

أجاب أشين بجدية مصطنعة:

«بجول الوقت الذي كنت سأصل فيه إلى المعلم، ربما كان الفتى قد أنهى ضرب نيراس.»

«لكن نيراس لم يكن يتعرض للضرب»! لأصاً قالت أمه.

توقف أشين. ثم أدار رأسه لقليلًا.

«هذه تفصيلة صغيرة.»

حدّق والداه فيه. رفع يديه مستسلماً.

«!حسناً ربما كان بإمكانك التفكير لثانيتين قبل أن ألكمه.»

قال أبوه:

«ثانيتين فقط؟»

«،ثالثاً إذا كنت تريد أن أكون دقيقاً.»

أغمض والده عينيه. أما أمه، فقد حاولت الحفاظ على جديتها، لكن ابتسامة صغيرة تسلفت إلى وجهها رغماً عنها. الحظها أشين فوراً، فاستغل الفرصة.

«،أمي أنت تفهميني، أليس كذلك؟»

اختفت ابتسامتها.

«ال تحاول استغلالي للخروج من العقاب.»

«لم أكن أحاول استغلالك. كنت أبحث عن دعم عاطفي.»

«ستبحث عن الدعم العاطفي بعد أن تنهي واجباتك، وتعتذر عن تصرفك، وتعدنا لبأاً تستخدم قبضتك لحل كل مشكلة.»

تأمل أشين الأمر.

«هل يمكنني استخدام قديمي لبداً منها؟»

نهض والده من كرسيه.

«إلى غرفتك!»

انطلق أشين نحو الدرج، وهو يتمتم:

«، حسناً! حسناً! داعي الاستخدام القوة في هذه العائلة!»

صرخت أمه من خلفه:

«سمعناك!»

أغلق باب غرفته، ثم ألقي بنفسه على السرير. ظل ينظر إلى السقف. لقليلاً كان يعرف أنه بالغ في رد فعله. لم يكن نيراس بحاجة إلى من ينقذه، وكان من الممكن أن تنتهي المشكلة بطريقة أقل فوضوية. لكنه حين رأى الفتى يندفع نحوه، لم يفكر. لطوياً لقد أراد أن يحمي صديقه. وكان ذلك الشعور صادقاً، حتى لو كانت طريقته في التعبير عنه سيئة. ابتسم وهو يتذكر وجه نيراس حين أ غلق الهاتف في مكتب المدير. ثم تتمم:

«على الأقل، والد نيراس رجل رائع.»

توقف لحظة.

«أحتاج إلى التحدث معه.»

وفي الطابق السفلي، كان أبوه يصرخ:

«أشين ال تفكر في أي حيلة جديدة!»

حدّق أشين في الباب.

«كيف يعرف دائماً؟!»

أعظم اختراع بعد السحر مع مرور السنوات، اكتشفت أن هذا العالم يمتلك اختراعاً يستحق أن يُخلّد اسمه في كتب التاريخ. اختراعاً جعل الحياة أكثر متعة، وقلّل من حاجتي إلى التفكير في الماضي، وفتح أمامي أبواب عوالم لم أكن ألحلم بزيارتها. ألعاب الفيديو. ال أبالغ حين أقول إنني شعرت، في المرة الأولى التي أمسكت فيها بوحدة تحكم، بأنني اكتشفت نوعاً جديداً من السحر. كيف يمكن لشخص أن يجلس أمام شاشة، ويدخل عالماً، لكاماً ويتحكم في شخصية تتحرك وتقفز وتقاتل، دون أن يحتاج إلى مغادرة مقعده؟ كان الأمر. لمذاً ثم اكتشفت ألعاب الحاسوب، وتحديدًا الألعاب الكالسيكية. بدأت رحلتي مع سلسلة **Half-Life**، وتوغلت في أجزائها وتجاربها المختلفة. لم تكن مجرد ألعاب أطلق فيها النار على كل ما يتحرك، بل وجدت نفسي أمام عوالم خيال علمي، ومختبرات غامضة، ومخلوقات غريبة، وأحداث تتصاعد تدريجياً حتى تجعلك تنسى الوقت. كان هناك شيء يعجبني في هذه الألعاب. الشخصية الرئيسية ال تحتاج دائماً إلى أن تكون ملكاً أو قائداً عظيماً كي تغير مجرى الأحداث. أحياناً، يكفي أن يجد المرء نفسه في المكان الخطأ، في الوقت الخطأ، ثم يحاول النجاة. لقد شعرت بأنني أفهم هذا النوع من القصص أكثر مما ينبغي. بالطبع، كنت أحياناً أعلق على قرارات الشخصيات وكأنني قائد عسكري يشاهد جنوداً يرفضون اتباع أبسط تعليماته.

«لماذا تدخل هذا الممر دون أن تتفقدته؟!»

ثم أكتشف بعد لحظات أنني أنا نفسي دخلت الممر ذاته دون أن أتفقدته. كنت أرفض الاعتراف بأنني ارتكبت الخطأ. ففي النهاية، ال يمكن لفارس سابق أن يسمح

لشخصية افتراضية بأن تنتصر عليه في نقاش. كما جربت ألعاب المتصفح، تلك الألعاب التي ال تحتاج إلى تحميل طويل أو جهاز قوي. بعضها كان بسيطاً وممتعاً، وبعضها الآخر جعلني أتساءل عما إذا كان مطوّروها يكرهون اللاعبين سرّاً. أدخل اللعبة، أبدأ اللعب، أتقدم في المستوى، أقرب من الفوز.. ثم تظهر نافذة إعلان تغطي الشاشة بأكملها. أغلقها. يظهر إعلان آخر. أغلقه. تبدأ اللعبة من جديد. يظهر إعلان ثالث. في تلك اللحظة، كنت أشعر بأنني ال أَلعب لعبة، بل أشارك في حرب نفسية ضد شركات الإعلانات. أحياناً، كان الإعلان أطول من الوقت الذي أقضيه في اللعب نفسه. كنت أهدق في الشاشة وأقول:

«في حياتي السابقة، كان علي أن أواجه جيوشاً كاملة، وأخطط لحصار القلاع، وأخوض معارك مصيرية.. أما هنا، فأنا أحاول فقط

العثور على زر الإغلاق!»

وكان أشين، الذي اعتاد الجلوس بجانبني حين نلعب، يضحك حتى تدمع عيناه.

«اضغط على الزاوية!»

«أي زاوية؟ هناك ثلاثة رموز صغيرة!»

«جربها كلها!»

«إذا ضغطت على شيء آخر وفتح الإعلان صفحة جديدة، فسأحملك مسؤولية ذلك!»

«أنت تهددني بسبب إعلان؟»

«أنا ال أهددك. أنا أضع خطة دفاعية.»

كان هذا هو عالمي الجديد. عالم يمكنني فيه خوض المعارك دون أن أخسر حياتي، واستكشاف أماكن غريبة دون أن أحتاج إلى حصان، وتجربة المغامرات دون أن أعود إلى المنزل لمتقاً بجراح حقيقية. لم تكن الألعاب قادرة على محو ذكرياتي، لكنها منحتني مساحة أتففس فيها بعيداً عنها. وكان ذلك كافياً.

ثمانية كيلوغرامات من الشجاعة جاءت العطلة، وقررت عائليتي زيارة جدتي. كنت متحمساً للزيارة، بالطبع. أحببت منزلها منذ أول مرة زرته، ال أنه كبير أو فاخر، بل أنه كان يحمل رائحة خاصة ال أستطيع وصفها بدقة؛ مزيجاً من الخبز الطازج، والتوابل، والقهوة، والأطعمة التي تطهوها بيديها. لكنني لم أكن أعرف أن هذه الزيارة ستتحول إلى اختبار حقيقي لقدرة جسدي على تحمل الحب العائلي. ذهبت إلى منزل جدتي وأنا أنقص نحو ثمانية كيلوغرامات عن الوزن الذي أعده طبيعياً بالنسبة إلي. كنت خيفاً، نشيطاً، وأتحرك طوال اليوم دون أن أتعب كثيراً. بعد ثلاثة أيام فقط، خرجت من هناك وقد زاد وزني عشرة كيلوغرامات. حسناً، ربما أبلغ. قليلاً لكنني أقسم أنني حين عدت إلى المنزل، شعرت بأني لم أعد نيراس نفسه، بل نسخة أكثر استدارة، وأقل قدرة على الركض، وأكثر لُمياً إلى الاستلقاء بعد كل وجبة. لقد كانت جدتي تؤمن إيماناً راسخاً بأن الطعام عاج لكل شيء. إن كنت حزيناً، فكل. إن كنت سعيداً، فكل لاحتفاً بسعادتك. إن كنت مريضاً، فكل حتى تستعيد قوتك. إن كنت شبهان، فهذه تحديداً مشكلة يمكن حلها بطبق صغير آخر. أما إذا قلت إنك ال تستطيع تناول المزيد، فإنها تنظر إليك بعينين مليئتين بالشفقة، كأنك أخبرتها للتو أنك لن تعيش حتى الغد. في اليوم الأول، جلست إلى مائدة الغداء وأنا أشعر بجوع حقيقي.

قدّمت جدتي الأطباق تباعاً، وكنت أتناول الطعام بسعادة. لم أكن أرى سبباً للقلق؛ فالطعام لذيذ، والجو دافئ، وجدي يجلس بجانبني يحكي بعض القصص القديمة. لكن جدتي لم تتوقف عند الغداء. بعده بقليل، أحضرت الفاكهة. ثم الشاي. ثم الحلوى. ثم قالت إنها أعدت شيئاً خفيفاً للمساء. شيئاً! خفيفاً بدأت أشك في أن مفهوم الخفة يختلف جذرياً بين الأجيال. وفي اليوم الثاني، بدأت أدرك أنني لست في زيارة عائلية عادية. كنت في حملة إطعام منظمة. جدتي هي القائدة، والمطبخ هو مركز العمليات، وأنا الهدف الرئيسي. أما جدي، فكان الرجل الوحيد الذي يفهم خطورة الموقف في عصر اليوم الثالث، كنت أجلس مع جدي

نظرت إليه بريبة.

«لماذا؟»

«ألن جدتك سمعت الصوت.»

التفتُ نحوها. كانت قد توقفت عن الكلام. رفعت رأسها ببطء، ثم نظرت إلي مباشرة. ابتسمت. ابتسامة دافئة. ابتسامة لطيفة. ابتسامة جعلت كل غريزة نجاة امتلكتها في حياتي السابقة تصرخ في وجهي بأن أهرب. قالت بخنان:

«يا صغيري، هل أنت جائع؟»

فتحت في الجيب، لكن جدي أمسك بذراعي من تحت الطاولة. هز رأسه لي بعنف. ال. ال تقل شيئاً. ال ترتكب هذا الخطأ. أجبت بحذر:

«ليس كثيراً يا جدي.»

وضعت يدها على صدرها.

«ليس كثيراً؟ يا حبيبي، لقد سمعت معدتك!»

ثم نهضت. نهضت بسرعة ال تناسب إطلاقاً مع عمرها، واتجهت نحو المطبخ. تابعتها بعيني حتى اختفت خلف الباب. ثم التفتُ إلى جدي. كان وجهه شاحباً.

«جدي ماذا يحدث؟»

أمسك فنجان به بقلتي يديه، وشرب منه رشفة طويلة، ثم وضعه على الطاولة. قال بصوت رجل رأى لأهواً ال يعرفها الآخرون:

«لقد انتهى أمرك.»

حدّقت فيه.

«ماذا؟!»

«حين تسمع جدتك صوت معدة شخص جائع، فإنها ال تعتبره مجرد صوت. إنها تعتبره نداء استغاثة رسمياً، صادراً عن معدة

مظلومة تحتاج إلى الإنقاذ.»

«لكنني قلت لها إنني لست جائعاً كثيراً!»

«وهذا أسوأ.»

«كيف يكون أسوأ؟!»

نظر إلي بجديّة مخيفة.

«ألها ستظن أنك تخجل من طلب الطعام، وستقرر أن تطهو ما يكفي الطعامك طوال أسبوع.»

ابتلعت ريتقي.

«أسبوع؟»

أوماً.

«إذا كانت في مزاج جيد.»

حدّقت في المطبخ. ثم عدت إلى جدي.

«...جدي هل أنت تمزح معي؟»

أطلق ضحكة قصيرة، لكنها كانت ضحكة رجل فقد الأمل منذ سنوات.

«يا بني، لقد عشت مع هذه المرأة عقوداً. أعرف ماذا يحدث عندما تسمع صوت معدة أحدهم.»

ثم أمسك بكتفي وقال:

«في إحدى المرات، عطست أمامها بعد أن قلت إنني أشعر بالبرد. أعدت لي ما

يكفي من الحساء لدرجة أنني بدأت أكره الشتاء.»
لم أعرف هل أضحك أم أهرب. لكن قبل أن أستطيع اتخاذ قرار، سمعنا صوت
جدتي من المطبخ.

«نيراس يا حبيبي هل تحب الدجاج أم اللحم أكثر؟»

تبادلنا أنا وجدتي النظرات. همست:

«لماذا تسألني هذا السؤال؟»

أجاب جدي:

«إنها تحدد حجم الكارثة.»

صرخت من المطبخ:

«وسأعد لك الأرز أيضاً!»

أغمض جدي عينيه.

«لقد بدأت العملية.»

بعد دقائق، ظهر أول طبق. ثم الثاني. ثم الثالث. كانت جدتي تتحرك بين المطبخ
وغرفة الطعام بخفة ال تصدق، تحمل الأطباق واحداً تلو الآخر، وتضعها على
الطاولة كما لو أنها تستعد المستقبل وفد من الملوك. ظهرت أطباق الدجاج، واللحم،
والأرز، والخضراوات المطهية، والسلطة، والحبز الطازج، ثم طبق كبير من الحساء.
جلست أنظر إلى المائدة. لم أعد أعرف إن كنت في منزل جدتي أم في قاعة الوالتم
بالقصر الملكي. بل إنني بدأت أشك في أن الملك نفسه لم يكن يتناول هذا القدر من
الطعام في مناسباته الرسمية. قالت جدتي بفخر:

«، حسناً يا صغيري، هذه مجرد أشياء بسيطة.»

أدرت رأسي نحو جدي. كان يحدق في الأطباق بنظرة فارغة. همس:

«مجرد أشياء.. بسيطة.. هذه الجملة هي بداية كل مصائبى.»

جلست جدتي إلى جانبنا، ووضعت أمامي طبقاً ممتلئاً.

«هيا يا نيراس، تناول الطعام. أنت ما زلت صغيراً وتحتاج إلى الغذاء.»

نظرت إلى الطبق. ثم إلى جدتي. ثم إلى جدي، الذي كان يراقبني بنظرة رجل يودّع رفيق ساحله قبل معركة ال عودة منها. قلت بحذر:

«شكراً يا جدتي، لكنني تناولت الكثير اليوم.»

وضعت يدها على خدي.

«أعرف يا حبيبي، لكنك ما زلت تكبر.»

كانت هذه الجملة، على ما يبدو، أقوى من أي حجة منطقية. بدأت أتناول الطعام. وكان لذيذاً. هذا هو الجزء المأساوي من القصة. لو كان الطعام سيئاً، المتلكت سبباً مقنعاً للتوقف. لكن جدتي كانت تطهو بطريقة تجعل كل لقمة تبدو كأنها اعتذار من العالم عن كل وجبة سيئة تناولتها في حياتك. أكلت ، ل قليلاً ثم قالت:

«هل أعجبك؟»

أومأت.

«كثيراً.»

ابتسمت بسعادة، ووضعت المزيد في طبقى. توقفت يدي في الهواء.

«جدتي لقد قلت إنني أحببته، ولم أقل إنني أريد إعادة ملء الطبق!»

ضحك جدي بصوت مرتفع. أما جدتي، فربّنت على كتفي.

«أعرف أعرف. تناول الطعام فحسب.»

نظرت إلى جدي مستنجداً. لكنه رفع فنجانه نحو فمه، وتظاهر بأنه لم ير شيئاً.

الخائن. بعد قليل، وصلت الحلوى. لم أفهم كيف حدث ذلك. أقسم أنني لم أر جدتي تغادر الطاولة، ولم أسمع خطواتها في المطبخ، ولم أشاهدها تخرج أي شيء من الفرن. ومع ذلك، ظهرت أمامنا أطباق جديدة، كأنها استدعيت من بُعد آخر. كان هناك كعك طازج، وقطع من الحلوى، وفاكهة مقطعة بعناية. حدّقت في الأطباق، ثم التفتُ نحو جدي. كان هو أيضاً يحدّق فيها. قال بصوت خافت:

«نيراس أريدك أن تجيبني عن سؤال.»

«ما هو؟»

«متى أعدت جدتك كل هذا؟»

نظرت إلى المطبخ. ثم إلى الساعة. ثم إلى جدي.

«كنت سأطرح عليك السؤال نفسه.»

اقترب مني وهمس:

«كنت أجلس هنا طوال الوقت. لم أسمع صوت الفرن، وال صوت الأواني، وال

حتى صوت السكاكين.»

قلت:

«ربما كانت قد أعدت كل شيء قبل أن تأتي.»

هز رأسه ببطء.

«مستحيل لقد رأيته في الصباح، وكانت تقول إنها ال تعرف ماذا ستطهو اليوم.»

ساد الصمت بيننا. ثم التفتُ نحو المطبخ مرة أخرى. للحظة، راودتني فكرة مرعبة. هل كانت جدتي تملك قدرة سحرية على استحضار الطعام؟ هل كان مطبخها بوابة إلى بُعد آخر مليء بالأطباق الجاهزة؟ وهل كانت تلك قدرتها السرية التي أخفتها عن الجميع طوال حياتها؟ نظرت إلى جدي. كان يبدو وكأنه يفكر في الأسئلة نفسها. ثم

قال بجدية تامة:

«يا بني، لقد واجهت في حياتي لرجاءً أقوى مني، ومررت بمواقف لم أكن أظن أنني سأخرج منها حياً. لكنني لم أتمكن يوماً من فهم

كيف تطهو هذه المرأة كل هذا الطعام في وقت قصير.»

أومأت بتعاطف.

«أفهمك يا جدي.»

ثم نظرت إلى الطبق الذي وضعته جدتي أمامي للتو. كان ممتلئاً من جديد. ال
أعرف متى امتأل. ال أعرف من مآله. وال أريد أن أعرف. كل ما أعرفه أنني
بدأت أقنع بأن الجدات في هذا العالم ال يحتجن إلى السحر، ألنهن اخترعن نوعاً
خاصاً من القوة يتجاوز قوانين الطبيعة. قوة الحب. وقوة الطعام. وقوة تلك العبارة
المرعبة:

«كل يا حبيبي، ما زلت جائعاً.»

في نهاية اليوم، استلقيت على السرير في غرفة الضيوف، عاجزاً عن الحركة تقريباً.
كنت أشعر بأنني تناولت ما يكفي الطعام فرقة كاملة من الجنود، وربما بقي شيء
يكفي الطعام الخيول أيضاً. دخل جدي الغرفة، وأغلق الباب خلفه، ثم جلس على
الكرسي القريب من السرير. نظر إلي. نظرت إليه. ساد صمت طويل. ثم قلت:

«جدي أعتقد أنني زدت عشرة كيلوغرامات.»

أوماً ببطء.

«هذا معقول.»

«في ثلاثة أيام فقط.»

«هذا أيضاً معقول.»

التفتَّ إليه بصدمة.

«كيف يكون ذلك معقولاً؟!»

ابتسم ابتسامة متعبة.

«ألنك قضيت ثلاثة أيام مع جدتك.»

ثم نهض متجهاً نحو الباب. وقبل أن يخرج، التفتَّ إلي وقال:

«نصيحة مني يا بني. إذا سمعت معدتك تصدر صوتاً في وجودها مرة أخرى، فال
تحاول إنكار الأمر.»

«لماذا؟!»

ابتسم ابتسامة رجل يعرف أسرار الكون.

«ألها ستعتبر إنكارك لدلياً على أنك جائع وال تريد إزعاجها.»

ثم خرج وأغلق الباب. بقيت أحدق في السقف. في حياتي السابقة، نجوت من
تدريبات قاسية، ومعارك دامية، ومؤامرات سياسية، وخسرت أعز أصدقائي بين
ذراعي. أما في حياتي الجديدة، فقد وجدت خصماً ال أملك أي فرصة لالتصار
عليه. جدتي. تهتت، ووضعت يدي على بطني.

«...أرجوك ال تصدر أي صوت.»

وبعد لحظة، صدر صوت خافت. .غررررررر. تجددت. ثم سمعت صوت جدتي من
خلف الباب:

«!نيراس هل أنت جائع يا حبيبي؟»

أغمضت عيني. يا روح. الزمن.. لقد أعدتني إلى الحياة كي أعيش من جديد، ال
كي أموت بسبب وليمة! عائلية يتبع...

الفصل الثالث عشر: حين يتعلم الجسد لغة الروح

لم أكن أوّمن بأن الإنسان يستطيع أن يبدأ حياته من جديد حقاً، حتى وجدت نفسي أفعل ذلك حريفاً. فبعد أن مِتُّ في عالمي القديم، وحملتني روح الزمن إلى هذا العالم الغريب، لم يكن عليّ أن أتعلّم كيف أعيش فحسب، بل كان عليّ أيضاً أن أتعلّم كيف أعيش **داخل جسد لم يكن **جسدي. قد يبدو الأمر سخيفاً لمن لم يجربه، لكن تخيل أن تمتلك عقل رجل خاض الحروب، وقرأ تحركات أعدائه، وحمل السيف حتى صار امتداداً لذراعه، ثم تستيقظ لتجد أن أبسط الحركات تحتاج منك إلى تركيز ال! يصدق كان عقلي يعرف ما ينبغي فعله، لكن جسدي ال يعرف كيف ينفذه. أريد أن أمد يدي، فتتحرك أصابعي ببطء. أريد أن أقف بثبات، فتهتز ساقي وكأنيما تتأمران عليّ. وحتى حين أحاول الركض، أشعر أحياناً بأنني أتعلّم المشي للمرة الأولى. يا لها من إهانة لكرامة فارس قضى عمره! يتدرب ومع ذلك، لم أكن أكره هذا الجسد. على العكس، كنت ممتناً له. فهو الجسد الذي منحني فرصة ثانية، وفرصة كهذه ال تُرفض لمجرد أن صاحبها ال يستطيع تنفيذ عشرين تمريناً للضغط دون أن يشعر بأن ذراعيه قررتا الاستقالة من الحياة. وكانت أمي أول من لاحظ أنني أمتلك شيئاً غير عادي.

بدأ الأمر في صباح هادئ، حين كنت أراقب أمي وهي تتمرّن في الحديقة المنزلية. كانت سالفيا امرأة رياضية محترفة، وكان جسدها يتحرك بانسيابية مذهلة؛ كل حركة محسوبة، وكل خطوة متزنة، حتى إنني كنت أشعر أحياناً بأنني أشاهد مقاتلة مدربة ال مجرد رياضية تؤدي تمارينها الصباحية. راقبتها لبعض الوقت قبل أن أسأله:

«أمي هل يمكنك أن تعلّمني بعض التمارين؟»

توقفت عن الحركة، ثم نظرت إليّ باستغراب لطيف.

«التمارين؟ منذ متى أصبحت مهتماً بالرياضة يا نيراس؟»

رفعت كتفيّ.

«أريد أن أصبح أقوى.»

لم تكن إجابتي كاذبة، لكنها لم تكن كاملة أيضا. فأنا لم أكن أريد جسدا قويا فحسب. كنت أريد جسدا أستطيع الوثوق به، جسدا يستجيب لأوامري دون أن أضطر إلى محاربته في كل مرة. أردت أن أستعيد ذلك الشعور الذي افتقدته منذ استيقظت في هذا العالم؛ شعور أن تكون حرا في الحركة، قادرا على التعبير عن نفسك دون أن يقف جسدك حاجزا بينك وبين ما تريد. ابتسمت أُمي ومسحت العرق عن جبينها.

«حسنا يا بطلي، لكننا سنبدأ ببطء. ال أريدك أن ترهق نفسك.»

«بالطبع.»

كنت أقول ذلك بوجه جاد للغاية، وكأني قائد عسكري تلقى أمرا رسميا. ولم أكن أعرف حينها أن هذه الجملة ستصبح الحقا أكثر الأكاذيب إيالما لعضالتي. بدأت أُمي بتعليمي بعض التمارين الخفيفة؛ تمارين التوازن، والمرونة، وتقوية العضلات الأساسية. كانت تراقب وضعيتي وتصحح أخطائي، بينما كنت أحاول تقليد حركاتها بأكبر قدر ممكن من الدقة. والمثير لاهتمام أنها لم تكن تلاحظ تقدمي فحسب، بل كانت تلاحظ شيئا آخر. في إحدى المرات، طلبت مني أن أقف على ساق واحدة وأحافظ على توازني. فعلت ذلك، لكنني سرعان ما فقدت توازني واضطرت إلى وضع قدمي على الأرض.

«حاول مرة أخرى.»

أعدت المحاولة. فشلت. حاولت مرة ثالثة، ثم رابعة، ثم خامسة. وفي كل مرة، كنت أراقب حركة قدمي، وموضع كتفي، وانحناء ظهري، وأحاول فهم الخطأ الذي ارتكبته. لم أبدأ محبطا، ولم ألق باللوم على صعوبة التمرين. كنت أتعامل معه كما لو كان لغزا عسكريا ال بد من حله. بعد محاولات عديدة، نجحت أخيرا في الثبات

لعدة ثوان. صفقت أُمي بسعادة.

«أحسننت يا نيراس أُرأيت؟ لقد استطعت فعلها!»

ابتسمت لها، لكنني كنت أفكر في شيء آخر. * كان ينبغي أن أستطيع ذلك منذ المحاولة *. الأولى لم يكن ذلك غرورا، بل كان شعورا غريبا يصعب شرحه؛ كأن عقلي يتذكر شيئا ال يستطيع جسدي تنفيذه. كنت أعرف كيف أحافظ على توازني، أو هكذا بدا لي، لكن عضالتي لم تكن تتعاون معي كما ينبغي. الحظت أُمي شرودي. اقتربت مني، ثم جلست على ركبتها حتى أصبحت في مستوى نظري.

«نيراس هل يؤمك شيء؟»

«ال أُمي.»

«هل تشعر بالتعب؟»

«قليال فقط.»

تأملتني لثوان، ثم قالت:

«أحيانا يبدو أنك تعرف كيف تؤدي الحركة قبل أن تتعلمها، لكن جسّدك ال يستطيع مجاراتك. حتى إنك تعيد الخطأ نفسه مرات

كثيرة، ثم تتوقف لتفكر فيه وكأنك تحاول تذكر شيء نسيته.»

ساد الصمت للحظة. كانت تلك اللحظة دقيقة أكثر مما ينبغي. كيف يمكنني أن أشرح لها أنني ال أحاول تذكر حركة نسيته، بل أحاول أن أجعل جسدا جديدا يتعلم ما كان جسدي القديم يتقنه؟ كيف أخبرها أنني أحيانا أشعر بأن عقلي وجسدي شخصان مختلفان، وأني أقف بينهما مترجما يحاول إجبار أحدهما على فهم الآخر؟ ابتسمت ابتسامة صغيرة، ثم وضعت يدها على رأسي.

«لا بأس. ربما لديك إمكانيات جيدة، لكن جسمك ما زال في مرحلة النمو. ال

تستعجل يا صغيري، فكل شيء يحتاج إلى وقت.»

تجاهلت الأمر بعد ذلك، أو هكذا بدا لي. لم تضغط عليّ بأسئلتها، ولم تحاول انتزاع إجابة ال أملك القدرة على تقديمها. اكتفت بمساعدتي على التدريب، وكانت تفرح بكل تقدم أحققه مهما بدا بسيطاً. أما أنا، فقد قررت أن أستفيد من كل لحظة معها. لم أكن أريد أن أضيع هذه الحياة في التحسر على الحياة التي فقدتها. لقد منحني السماء أما تحيني، وأبا يقف إلى جانبي، وبيتا أعود إليه دون أن أخشى أن أجد أبوابه مهدمة أو أهله قد رحلوا إلى الأبد. وكان أقل ما يمكنني فعله أن أعني بهذه النعمة. لكنني، بطبيعة الحال، لم أكن أنوي الكفاءة بالتمارين الخفيفة إلى الأبد. فثمة مكان آخر كان ينتظرنني. مكان ستبدأ فيه رحلتي الحقيقية.

كانت الحديقة العامة قريبة من منزلنا، وتضم مساحات واسعة لأشجار والعشب، وممرات للمشي والركض، إضافة إلى بعض الأعمدة الحديدية والقضبان المثبتة التي يستخدمها الناس للتمارين. في البداية، كنت أذهب إليها في أوقات الصباح الباكر، حين تكون شبه خالية من الزوار. لم أكن أريد أن يراقبني أحد وأنا أحاول تنفيذ حركات قد تنتهي بي ملقى على الأرض، أتأمل السماء وأتساءل إن كان من الممكن أن أموت للمرة الثانية بسبب عمود حديدي. كانت كرامتي ال تزال مهمة بالنسبة إليّ، ولو قليلاً. كنت أبدأ بالإحماء، ثم أتوجه إلى القضبان ألجرب بعض الحركات البسيطة. وبعدها أعود إلى الأرض ألأدرب على التوازن والمرونة، وأكرر كل حركة مرات عديدة حتى أفهم طريقة تنفيذها. لم أكن أملك مدرباً خاصاً، ولم أكن أعرف في البداية سوى القليل عن أنواع الرياضات التي يمكن ممارستها باستخدام وزن الجسم. لكنني كنت أملك شيئاً أكثر أهمية الفضول، والإصرار، واستعداداً مزججاً لتكرار الخطأ نفسه ألف مرة إن لزم الأمر. وهكذا اكتشفت عالم الكالستنكس. كان الأمر أشبه باكتشاف أسلوب جديد للقتال، لكنه ال يحتاج إلى سيف أو درع، بل إلى السيطرة على جسدك وحده. التعلق بالقضبان، ورفع الجسم، والحفاظ على التوازن، والتحكم في كل عضلة أثناء الحركة؛ كل ذلك جعلني

أشعر بأني أمام لغة جديدة، لغة ال تتحدث بالكلمات، بل بالقوة والدقة والصبر. ثم اكتشفت البريك دانس. وهنا تحديداً، بدأت أشك في أن روح الزمن لم تكتف بإعادة إحيائي، بل أرادت أيضاً أن تجعلني أبدو أحق أمام نفسي. في الكاليستنكس، كنت أستطيع تحليل الحركة وتقسيمها إلى خطوات واضحة. أما في البريك دانس، فقد كان عليّ أن أتعلم كيف أجعل جسدي يتحرك مع الإيقاع، وكيف أنقل وزني من جهة إلى أخرى دون أن أفقد توازني، وكيف أحول سلسلة من الحركات إلى شيء يبدو منسجماً بدال من أن يبدو كأن شخصاً يتصارع مع الأرض. كانت المحاولة الأولى كارثة. حاولت تنفيذ حركة بسيطة، فاختل توازني وسقطت على جانبي. نهضت. حاولت ثانية، ففشلت. ثالثة، فشلت أيضاً. وفي الرابعة، نجحت في تنفيذ نصف الحركة، ثم انتهى بي الأمر جالسا على الأرض. نظرت إلى يديّ. ثم إلى الأرض. ثم رفعت رأسي نحو السماء. *أحقا يا روح الزمن؟ أعدتني من الموت ألتعرض لهذا القدر من *الإهانة؟ لم تجبني السماء، بالطبع. وهذا ما كان متوقعا من إله مزعوم ال يحترم حتى واجباته تجاه من أعادهم إلى الحياة. ومع ذلك، واصلت التدريب. شيئا فشيئا، بدأت أشعر بتغير داخلي. لم يكن الأمر مجرد قوة تزداد في عضالتي، أو توازن يتحسن مع الأيام. كنت أشعر بأني أستعيد شيئا أعمق من ذلك؛ إحساسا بالتصال بين العقل والجسد، بين ما أريده وما أستطيع فعله. كلها نجحت في حركة كنت قد فشلت فيها عشرات المرات، شعرت بفرحة صغيرة تتسلل إلى صدري.

وكلها سقطت ونهضت مجدداً، كنت أتعلم أن الفشل ليس دائماً دليال على العجز، بل قد يكون مجرد إشارة إلى أن الطريق ال يزال أطول مما توقعت. وللمرة الأولى منذ استيقظت في هذا العالم، لم أعد أشعر بأني أعيش فقط ألني أُجبرت على العيش. بدأت أشعر بأني أريد ذلك حقاً. كنت أريد أن أرى إلى أي حد يمكنني الوصول. أريد أن أكتشف ما يستطيع هذا الجسد فعله. أريد أن أضحك، وأن أتعب، وأن أسقط، وأن أنهض، وأن أعود إلى المنزل أجد أمي تسألني إن كنت قد

أكلت جيداً، وأبي يرفع عينيه عن عمله ليسألني كيف كان يومي. كانت تلك الأشياء الصغيرة تمنحني شعوراً بالحياة لم أعرفه حتى حين كنت أعيش في القصور. ولم أكن أعلم أنني لم أعد وحدي في الحديقة منذ وقت طويل. في أحد الصباحات، وبينما كنت أحاول تنفيذ حركة على القضبان الحديدية، سمعت صوتاً من خلفي يقول:

«إنه يحاول فعلها مجدداً.»

توقفت، ونظرت خلفي بجزر. كان هناك رجالن شابان يقفان قرب إحدى الأشجار، يرتديان ملابس رياضية. وعلى ما يبدو، كانا يأتیان إلى الحديقة بانتظام لممارسة تمارينهما. أحدهما طويل، ذو كتفين عريضتين، والآخر أقصر قليلاً، لكنه كان يبدو رشيقاً وخفيف الحركة. قال الثاني وهو يتسم:

«أعرف لقد رأيته هنا عدة مرات. يسقط، ثم ينهض، ثم يعيد المحاولة وكأن شيئاً لم يحدث.»

*.رائع أصبحت فقرة الترفيه الصباحية في *.الحديقة حاولت تجاهلهما والعودة إلى التدريب، لكنني شعرت بنظراتهما تالحن حركاتي. في البداية، أزعجني الأمر. كنت أفضل التدريب وحدي، بعيداً عن أعين الناس وتعليقاتهم. لكنني سرعان ما أدركت أنهما لم يكونا يسخران مني. كانا يراقبانني باهتمام حقيقي. وبعد قليل، اقترب الرجل الأطول وقال:

«هل تتدرب على الكالستنكس؟»

أومأت برأسي.

«أحاول ذلك.»

نظر إلى القضبان، ثم إليَّ.

«منذ متى؟»

«منذ فترة..»

لم أشأ أن أقول له إنني ما زلت أتعلم أساسيات الحركة، وال أن أشرح له أنني أحيانا أشعر بأن جسدي يرفض تنفيذ أوامر عقلي. ابتسم وقال:

«، حسنا لديك إصرار واضح. لكنك تضع وزنك بطريقة تجعل الحركة أصعب مما ينبغي.»

أشار إلى موضع يديّ، ثم شرح لي كيف أعدل قبضتي وأحافظ على ثبات كتفيّ. استمعت إليه بانتباه. لم أكن أحب أن أتلقي الأوامر من الغرباء، لكنني لم أكن أملك سببا لرفض نصيحة يمكن أن تساعدني على التحسن. جربت الحركة مجددا. هذه المرة، كان التنفيذ أفضل. قال الرجل مبتسما:

«أرايت؟ الأمر ليس قوة فقط، بل طريقة استخدام القوة أيضا.»

تأملت يديّ للحظة، ثم أجبته بجدية:

«، إذن إذا كانت المشكلة في طريقة استخدام القوة، فينبغي أن أستطيع تقليل الجهد المبذول مع زيادة دقة الحركة.»

نظر إليّ رقيقه بدهشة. أما الأول، فقد ضحك بخنفة وقال:

«أنت تتحدث وكأنك تحلل معركة عسكرية.»

*لو كنت تعرف كان عليّ أن أحبس ضحكتي بصعوبة. ومنذ ذلك اليوم، لم تعد الحديقة مكانا أتدرب فيه وحدي فحسب. بدأ بعض الرياضيين يتحدثون معي، ويصححون أخطائي، ويشرحون لي حركات جديدة. كانوا يستغربون طريقة تفكيري أكثر من استغرابهم لمهاراتي. فأنا لم أكن أتعلم بسرعة خارقة كما قد يتوقع المرء من طفل يمتلك عزيمة قوية، بل كنت أتعثر في الحركة الواحدة مرات لا تحصى. ومع ذلك، كنت أراقب كل محاولة، وأحلل ما حدث، ثم أعود إليها من جديد. إذا أخطأت في موضع قدمي، حاولت فهم السبب. إذا فقدت توازني،

راجعت توزيع وزني. وإذا أخفقت في تنسيق حركتين، فصلتهما إلى جزأين، وتدربت على كل منهما حتى أستطيع جمعهما معا. لم يكن ذلك سهلا، لكنه كان ممتعا على نحو لم أستطع تفسيره. وبعد فترة، بدأت أكتشف أن الرياضة ليست مجرد وسيلة لبناء الجسد، بل إنها تمنح الإنسان فرصة ليرى نفسه من زاوية مختلفة. في كل مرة أتجاوز فيها عقبة صغيرة، كنت أشعر بأنني انتصرت على جزء من خوفي القديم؛ ذلك الجزء الذي كان يهمس لي بأن فقدان كل شيء يعني أنني فقدت نفسي أيضا. لكنني لم أفقد نفسي. كنت أعيد اكتشافها، حركة بعد حركة.

ومع مرور الأيام، بدأت ألاحظ أمرا آخر. لم تكن الرياضات الحرة تثير اهتمامي لأنها تجعلني أقوى فحسب، بل لأنها تمنحني حرية لم أعرفها في حياتي الأولى. كنت قد قضيت سنوات طويلة أتدرب على القتال وفق قواعد محددة، وأتحرك وفق أوامر القادة، وأحسب خطواتي حتى ال أترك ثغرة يستغلها العدو. كانت كل حركة في المعركة تحمل غاية واضحة: صد ضربة، أو إصابة خصم، أو حماية شخص، أو النجاة من الموت. أما هنا، فلم يكن عليّ أن أهزم أحدا. لم يكن هناك عدو ينتظر خطئي، وال ساحة معركة تغرق في الدماء، وال صديق يحتضر بين ذراعي ويطلب مني وعدا أعرف أن الوفاء به سيؤلني بقية حياتي. كان هناك جسدي فقط، والموسيقى أحيانا، وأرض واسعة أستطيع أن أتحرك فوقها دون أن أخشى أن أفقد أحدا بسبب حركة خاطئة. كانت تلك الحرية غريبة عليّ. وربما لهذا السبب أحببت البريك دانس أكثر مما توقعت. في البداية، كنت أتعامل معه كما أتعامل مع القتال؛ أحلل كل حركة، وأحفظ تسلسلها، وأحاول تنفيذها بدقة صارمة. لكنني اكتشفت أن الدقة وحدها ال تكفي. كان عليّ أن أتعلم كيف أترك جسدي يتحرك بانسيابية، وكيف أسمح للإيقاع بأن يقودني دون أن أفقد السيطرة. كان الأمر أشبه بمصالحة بين العقل والجسد. العقل يخطط، والجسد ينفذ، لكن الموسيقى تمنحهما مساحة ليتحدثا بلغة ال تحتاج إلى الأوامر.

وبمرور الوقت، لم أعد أكتفي بالتدرب على الحركات منفردة. بدأت أجمع بينها،

وأبحث عن طريقة تجعل الانتقال من حركة إلى أخرى طبيعياً، كأنها أجزاء من قصة واحدة. كنت أفشل كثيراً. لكنني، للمرة الأولى، كنت أستمع حتى بالفشل. فكل سقطة كانت تمنحني سبباً جديداً للنهوض، وكل حركة أتقنتها كانت تفتح أمامي باباً لم أكن أعرف بوجوده. ولعل أكثر ما أسعدني هو أنني لم أعد أحتاج إلى تبرير ابتسامتي. كان يكفي أن أنجح في حركة صعبة، أو أن أسمع أحد الرياضيين يشجعني، أو أن أجد نفسي أتحرك بانسيابية أكبر من اليوم السابق. كنت أبتسم ببساطة. كطفل حقيقي، ال كروح رجل يحمل خلف عينيه حياة كاملة من الذكريات. ثم جاء ذلك اليوم. اليوم الذي قررت فيه أن أجرب الرقص أمام الآخرين للمرة الأولى. كنت قد أمضيت وقتاً طويلاً أتدرب على مجموعة من الحركات، وأعيد ترتيبها حتى أصبحت أكثر انسجاماً. لم أكن أمتلك مهارة راقص محترف، ولم أكن أظن أن ما سأفعله يستحق كل ذلك الاهتمام، لكنني شعرت بأنني مستعد لنحوض التجربة. كانت الحديقة أكثر ازدحاماً من المعتاد. بعض الرياضيين يتدربون على القضبان، وآخرون يمارسون تمارين المرونة، فيما كان عدد من الشباب يجلسون قرب الممرات ويتبادلون الأحاديث. كنت أتدرب على خطواتي حين سمعت أحدهم يقول:

«مهال! نيراس هل ستجرب تلك الحركات التي كنت تتدرب عليها؟»

التفت إليه. كان أحد الرياضيين الذين اعتادوا مساعدتي، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة.

«ربما.»

قال آخر من بعيد:

«ال تقل! ربما لقد جعلتنا نشاهد تدريباتك السرية الأسابيع. حان وقت العرض!»

*تدريبات سرية؟ يا إلهي، يبدو أنني أصبحت أسطورة محلية دون *.علي حاولت التهرب، لكنهم لم يتركوني وشأني. بدأ بعضهم يصفق بإيقاع منتظم، بينما أخذ

آخرون يطالبوني بالتجربة. لم أكن أحب أن أكون مركز الاهتمام، لكنني لم أشعر هذه المرة بالخوف الذي توقعت أن أشعر به. ربما لأنني لم أكن أحاول إثبات شيء. كنت أريد فقط أن أستمع. أخرج أحد الشباب هاتفه، وشغل مقطعاً موسيقياً إلهدي أغاني إمينيم، فانطلقت النغمات في الهواء، حادة وسريعة، تحمل طاقة جعلت المكان يبدو وكأنه استيقظ فجأة. نظرت إلى مصدر الصوت. ثم إلى المجموعة التي بدأت تتجمع حولي. وأخيراً، أخذت نفساً عميقاً. *حسناً يا نيراس. إنها مجرد رقصة. لن يقتلك أحد إن *أخطأت توقفت للحظة. *على *الأرجح ثم بدأت. في الثواني الأولى، تحركت بخطوات بسيطة، أختبر الإيقاع وأضبطت توقيت حركاتي. انتقلت من حركة إلى أخرى، مستخدماً ذراعياً وكتفي في تناغم مع الموسيقى، ثم انخفضت بجسدي قليلاً وانتقلت إلى حركة أكثر سرعة. كانت كل حركة تحمل جزءاً من التدريب الطويل الذي سبقها. لم أكن أفكر في كل خطوة كما كنت أفعل في الماضي؛ لم أعد أحتاج إلى تحليل كل تفصيل بوعي كامل. بدأت عضلاتي تستجيب بصورة أفضل، وراح جسدي يتذكر ما تعلمه خلال الأسابيع الماضية.

وحين وصلت الموسيقى إلى مقطع أكثر حيوية، اندفعت إلى سلسلة من الحركات المتتابعة، أغير اتجاهي بسرعة، وأدور بجسدي، ثم أستعيد توازني وأنتقل إلى الخطوة التالية. لم تكن حركاتي مثالية، لكنني لم أعد ذلك الطفل الذي يسقط بعد كل محاولة. كنت أتحرك بثقة متزايدة، وأسمح للموسيقى بأن تمنحني الإيقاع الذي كنت أبحث عنه. ثم جاءت اللحظة التي كنت أترقب عليها منذ أيام. انخفضت بجسدي، وضعت يدي على الأرض، وبدأت حركة دوران قصيرة، ثم دفعت نفسي إلى وضعية أكثر ثباتاً، قبل أن أنهض بسالسة وأكمل الرقصة. لم أسمع شيئاً سوى الموسيقى. لم أرسو المساحة أمامي. ولم أشعر بشيء سوى تلك الحرية الغريبة التي جعلتني أنسى، ولو لدقيقة واحدة، أنني كنت يوماً فارساً مات وهو يحمل قلباً مثقال بالندم. وحين انتهى المقطع الذي كنت أرقص عليه، ختمت حركاتي بخطوة أخيرة، ثم ثبتت في مكاني للحظة. ساد الصمت. نظرت إلى الواقفين حولي، وقد بدأت

أتساءل إن كنت قد ارتكبت خطأ فادحا دون أن أنتبه. ثم.. انفجرت الحديقة بالتصفيق.

«يا إلهي!»

«كيف تعلمت هذا؟!»

«!أعدها أعدها مرة أخرى!»

«انتظر! انتظر هل رأيت الحركة الأخيرة؟ لقد انتقل من الدوران إلى الوقوف وكأن الأمر ال يحتاج إلى أي جهد!»

أما الرجل الذي ساعدني في تعلم أساسيات الكالستنكس، فقد كان يحرق بي بفهم مفتوح. اقترب مني وقال:

«لحظة.. واحدة.. أليس هذا أول عرض لك أمام الناس؟»

أومأت برأسي، وأنا أحاول التقاط أنفاسي.

«نعم.»

«وأنت تتدرب منذ أسابيع فقط؟»

«نعم.»

وضع يديه على رأسه، ثم التفت إلى صديقه.

«هل رأيت! هذا؟ هذا الصغير كان يتدرب وحده كل صباح، وكنت أظن أنه يحاول فقط تعلم بعض الحركات الأساسية!»

ضحك صديقه وهو يصفق.

«لقد كان يخفي عنا كل هذا!»

*أخفيه؟ يا رجل، أنا نفسي لم أكن أعرف أنني أستطيع *!فعله لم أقل ذلك

بصوت مرتفع، بالطبع. اكتفيت بابتسامة نخولة، بينما كان بعض الشباب يطلبون مني أن أعيد الحركة الأخيرة حتى يتمكنوا من رؤيتها بوضوح. أعدتها لهم ببطء، وبدأت أشرح كيف وزعت وزني، وأين وضعت يدي، وكيف انتقلت من الحركة الأولى إلى الثانية دون أن أفقد توازني. استمعوا إليّ باهتمام، لكن أحدهم قاطعني قائلاً:

«أنت تشرح الأمر وكأنك تعلمنا كيفية عبور ساحة معركة!»

تجمدت ابتسامتي للحظة. ثم ضحكت.

«ربما ألنني أفكر كثيراً.»

قال الرجل الأطول وهو يهز رأسه بإعجاب:

«وهذه بالضبط ميزتك. أنت ال تعلم الحركة فحسب؛ أنت تحاول فهمها. حتى عندما تخطئ، ال تكرر الخطأ بالطريقة نفسها دون

تفكير. تتوقف، تراجع ما فعلته، ثم تحاول مجدداً.»

وأضاف صديقه:

«والأغرب أنك ال تغضب عندما تفشل. معظم الناس يتوقفون عندما يشعرون بالإحراج، أما أنت فتسقط، ثم تنهض وكأنك تقول

:لأرض لن تنتصري هذه المرة أيضاً!»

لم أستطع منع نفسي من الضحك.

«في الحقيقة، بدأت أعتقد أن الأرض تحمل ضغينة شخصية ضدي.»

انفجروا ضاحكين. وكان ذلك أول يوم أدرك فيه هؤلاء الرياضيون أن الطفل الهادئ الذي اعتاد التدريب في أوقات الفراغ يمتلك قدرة الفتة على التعلم، ليس لأنه يتقن كل شيء من المحاولة الأولى، بل لأنه يرفض أن يجعل المحاولة الفاشلة نهاية

الطريق. وبالنسبة إليّ، كان ذلك اليوم أكثر من مجرد رقصة ناجحة. كان أول مرة أسمح فيها لنفسي بأن أظهر أمام الآخرين دون أن أختبئ خلف صورة الفارس المثالي الذي يجب أن يكون قويا دائما، وأن يعرف الإجابة عن كل سؤال، وأن يتحمل كل ألم دون أن يشتكي. كنت مجرد طفل يرقص على أنغام أغنية يحبها. طفل يسقط أحيانا، ويخطئ كثيرا، لكنه يستمتع بكل لحظة يقضيها في التعلم. ولم أشعر قط بأنني أقرب إلى الحياة مما شعرت به في تلك اللحظة.

بعد ذلك اليوم، تغيرت أشياء كثيرة في الحديقة. لم يعد بعض الرياضيين يكتفون بإلقاء التحية عليّ عندما أصل؛ بل أصبحوا ينادوني من بعيد، ويطلبون مني أن أريهم ما تعلمته، أو يسألوني إن كنت قد أتقنت حركة جديدة. كان أحدهم يعلمني طريقة أفضل ألداء حركة على القضبان، بينما يحاول آخر أن يشرح لي كيفية تحسين مرونتي. أما محبو البريك دانس، فقد أصبحوا يتعاملون معي وكأنني مشروع راقص صغير ينبغي مراقبة تطوره يوما بعد يوم. وكنت أتعلم منهم جميعا. أتعلم الحركات، وأتعلم الصبر، وأتعلم أن لكل شخص طريقته الخاصة في التعبير عن نفسه. وبمرور الوقت، بدأت أستطيع تنسيق عدة مهارات في سلسلة واحدة؛ أبدأ بحركات بسيطة، ثم أنتقل إلى خطوات راقصة، وأدمج بينها وبين حركات تعتمد على التوازن والتحكم في الجسد. لم تكن كل محاولة ناجحة، بالطبع. في إحدى المرات، حاولت دمج حركتين قبل أن أتقن الانتقال بينهما، فانهت بي الأمر على الأرض، بينما انحنى أحد الشباب من الضحك حتى كاد يفقد توازنه. نظرت إليه من مكاني.

«هل انتهيت؟»

حاول أن يتوقف عن الضحك، لكنه لم يستطع.

«...آسف. آسف.. لكن وجهك حين سقطت...»

نهضت، ونفضت الغبار عن مالبسي، ثم قلت بجديّة مصطنعة:

«أريد تسجيل شكوى رسمية ضد الجاذبية.»

عاد الضحك من جديد. حتى إن أحدهم قال:

«أقسم إن هذا الطفل أخطر من كل الرياضيين الذين قابلتهم إنه يسقط، ثم يجعلنا نحن نشعر بالذنب أننا ضحكنا!»

لم أكن أخطر منهم، بالطبع. لكنني كنت أملك سرا لم يعرفه أي منهم. وراء هذا العقل الصغير الذي يخطط لكل حركة، كانت هناك ذكريات رجل عاش حياة كاملة، وتعلم بالطريقة القاسية أن الإنسان ال يستطيع التحكم في كل ما يحدث له. لقد خسرت أصدقاء، وفقدت حيي، ورأيت أحالي تتحطم أمام عيني، ثم متُّ وأنا أحمل في صدري كلمات لم أعد أستطيع قولها. لكنني الآن كنت أعلم شيئا لم أفهمه في حياتي الأولى. **ليس من الضروري أن تكون كل معركة من أجل النجاة، وليس من الضروري أن يكون كل انتصار على حساب شخص **. آخر أحيانا، يكون الانتصار الحقيقي أن تتعلم حركة جديدة بعد عشرات المحاولات. أن تضحك بعد سقوط محرج. أن تسمح للآخرين بمساعدتك دون أن تشعر بأنك أصبحت أضعف. وأن تجد شيئا يجعلك ترغب في الاستيقاظ صباحا، ال أن عليك واجبا تؤديه، بل أنك تتطلع إلى معرفة ما الذي ستتعلمه في ذلك اليوم. كنت أعود إلى المنزل متعبا، وعضالي تؤلمني، ومالبسي تحمل آثار التدريب، لكنني كنت أشعر براحة غريبة. وحين تسألني أمي عن يومي، كنت أحدثها عن الحركات الجديدة التي تعلمتها، وعن الرياضيين الذين ساعدوني، وعن المرة التي نجحت فيها أخيرا في تنفيذ حركة عجزت عنها طوال أيام. كانت تستمع إليّ بابتسامة دافئة، وأحيانا تضحك حين أعيد تمثيل سقطة تعرضت لها. أما أبي، فكان يرفع عينيه عن أوراقه، وينظر إليّ للحظات، ثم يقول:

«يبدو أنك تستمتع كثيرا بوقتك.»

كنت أجيبه:

«أجل يا أبي.»

وكانت تلك الإجابة البسيطة تحمل من الصدق أكثر مما استطعت قوله في سنوات طويلة من حياتي السابقة. نعم، كنت أستمع. كنت أعيش. ولم أعد أريد أن أكون مجرد فارس عظيم، أو محارب ال يُهزم، أو شخص يستطيع تحمل الألم أكثر من غيره. أردت أن أكون نيراس. ذلك الطفل الذي بدأ يتعلم كيف يستخدم جسده، وكيف يتحرك مع الموسيقى، وكيف يصنع لنفسه مكانا في هذا العالم دون أن يحمل سيفاً في يده. ومع ذلك، كنت أعرف أن الطريق ال يزال طويلاً. لجسدي ما زال ينو، وقدراتي ما زالت محدودة، والهوة بين ما يتذكره عقلي وما يستطيع جسدي فعله لم تختف تماماً. لكنني لم أعد أخشى تلك الهوة كما كنت أفعل في البداية. لقد تعلمت أن أعبرها خطوة بعد خطوة. وكلما سقطت، نهضت. وكلما أخطأت، حاولت مجدداً. وكلما سمعت التصفيق من حولي، تذكرت أنني لم أعد مضطراً إلى العيش وحيداً في عالم ال يعرف عن آلمي شيئاً. ربما لم أعد أملك حياتي القديمة. وربما لن أستطيع استعادة كل ما فقدته فيها. لكن هذه الحياة كانت ملكي الآن. وكانت لديّ رغبة صادقة في أن أعيشها حتى النهاية. أما روح. الزمن.. فإذا كانت تراقبني في مكان ما، فأرجو أن تستمتع بما فعلته. أثنى، إن التقيت بها مجدداً، فسأجعلها تتعلم البريك دانس رغماً عنها. وأقسم أنني سأضحك كلما سقطت.

الفصل الرابع عشر: أعياد لم أعرفها، ومغامرات لم أخطط لها

كانت سنوات الابتدائية من أجمل فترات حياتي الثانية. تعلمت فيها أشياء كثيرة، كوّنّت صداقات، وبدأت أفهم كيف يعيش الأطفال في هذا العالم. وبالطبع، كان أشين مسؤول عن نصف المشاكل التي واجهتها، والنصف الآخر كان نتيجة قرارات اتخذناها معا ثم اتفقنا على إنكارها. لكنني لم أكن أتوقع أن تنتهي تلك المرحلة ألكشف أن هناك مرحلة أخرى تُدعى! «الإعدادية حين أخبرني والداي بذلك، ظننت في البداية أنها مدرسة ابتدائية أكبر قليلا، لكنني اكتشفت أنني كنت مخطئا تماما. ففي يومي الأول، وقفت أمام المبنى أحرق فيه بدهشة؛ كان أوسع من مدرستي القديمة، وممراته أطول، وساحته أكبر، حتى إنني تساءلت إن كنت سأحتاج إلى خريطة كي أجد قسمي. أما أشين، فقد وقف بجانبني وهو يحرق في المبنى ثم قال: «تخيل أن نضيع هنا وال يجدنا أحد حتى نهاية!» العام أجبته: ببرود «في حالتك، قد يكون ذلك راحة». للمدرسين فضحكا وتوجهنا إلى الداخل. وبينما كنا نتفحص المكان، الحظت أمرا غريبا: آخر كان الأوالديرتدون مالبسهم العادية، بينما ترتدي الفتيات مآزر مدرسية. حدقت في الأمر قليلا محال فهم الحكمة منه، لكنني لم أجد تفسيراً منطقياً. *هل هناك خطر يهدد الفتيات تحديدا من مالبس المدرسة، أم أن أحدهم قرر ذات يوم أن هذا هو النظام وانتهى *النقاش؟ قررت أأل أشغل عقلي بمسألة لن أجد لها إجابة، خصوصا أنني كنت أحاول تذكر الطريق إلى القسم، بينما كان أشين يتصرف وكأنه يعرف المدرسة منذ عشر سنوات، رغم أنه كان يسير خلفي منذ البداية.

ومع انشغالي بالحديث عن المدرسة، كدت أنسى تجربة تستحق أن أتوقف: عندها **عيد ميلادي الأول في هذه **الحياة. لم أكن قد اعتدت الاحتفال بعيد ميلادي

في حياتي السابقة بالطريقة التي يحتفل بها الأطفال هنا؛ لم تكن هناك كعكة تتوسط الطاولة، وال شموع صغيرة تنتظر أن أطفئها، وال أفراد عائلة يجتمعون حولي بابتسامات صادقة. لذلك، حين دخلت غرفة المعيشة في ذلك المساء ورأيت الكعكة المزينة والشموع المضيئة، توقفت عند الباب دون أن أشعر. كانت أمي تبسم، وأبي يقف بجانبها، وقد حضر الثنان احتفال صغيرا من أجلي. وحين بدأ يغنيان، شعرت بشيء دافئ يتسلل إلى صدري. بدت اللحظة بسيطة للغاية، لكنها كانت بالنسبة إلي شيئا لم أعرف كيف أصفه. اقتربت من الكعكة، ونظرت إلى الشموع، ثم أغمضت عيني أتمنى أمنية. لم أطلب القوة، ولم أتمن العودة إلى حياتي القديمة، ولم أفكر في الانتقام أو في الأشياء التي خسرتها. تمنيت فقط أن تبقى هذه اللحظات معي طويلا. نفخت الشموع، فصفقت أمي بحماس، بينما قال أبي: مبتسما «والآن، حان وقت الكعكة» لم أحتج إلى دعوة ثانية. جلست معهما، وتذوقت أول قطعة، وكانت ابتسامتي كافية لتخبرهما بأنني سعيد. لكنهما لم يعرفا أنني كنت أحاول إخفاء دموعي.

لم تكن دموع حزن، بل كانت دموع شخص اكتشف أخيرا أن السعادة قد تأتي في صورة كعكة صغيرة، وشموع مطفأة، وعائلة ال تطلب منه شيئا سوى أن يكون سعيدا. في تلك الليلة، أدركت أنني لم أكن أحتاج إلى قصر أو لقب أو إنجاز عظيم كي أشعر بأنني مهم؛ كنت أحتاج فقط إلى مكان أنتمي إليه.

أما مغامرتي الأولى مع أصدقائي خارج المنزل، فقد كانت قصة مختلفة تماما. كنت في العادة قليل الخروج، فأنا أفضل قضاء وقتي في التدريب أو اللعب أو البقاء مع عائلتي، لكن أشين لم يكن يرى في ذلك أسلوب حياة مقبول. وبعد إلحاح طويل، وافقت على الخروج معه ومع بعض أصدقائنا لقضاء يوم في المدينة. بدأ الأمر بجولة عادية في الأزقة، تبادل الأحاديث ونضحك على أمور ال تستحق الضحك أصال. ثم قررنا زيارة المدينة العتيقة، حيث بدت الشوارع الضيقة والمباني القديمة وكأنها تحتفظ بأسرار من زمن بعيد. كنت أتأمل الأبواب الخشبية المزخرفة والجدران

العتيقة، وأتخيل كيف كانت الحياة هنا قبل سنوات طويلة. للحظة، شعرت بأنني عدت إلى عالم يشبه عالمي السابق، لوال أن أشين كان يسير بجانبني ويشرح ألد أصدقائنا بثقة كيف يستطيع معرفة عمر المبنى من شكل بابه، مع أنه كان يخترع الكالم من رأسه. بعد جولة طويلة، توقفنا عند أحد الباعة واشترينا بعض الطعام. لم يكن طعام القصور الفاخرة، لكنه كان لذيذا، وربما أأنا تناولناه ونحن نضحك وتبادل التعليقات السخيفة. وبعد أن انتينا، بدأ الجانب المظلم من شخصية أشين يظهر. اقترح أن نطرق أحد الأبواب ثم نهرب. حدث فيه غير مصدق. «هل قطعت كل هذه المسافة كي تقترح علينا يقوم به طفل في «الخامسة؟ ابتسم ابتسامته المشبوهة: وقال «أنت تتحدث كثيرا يا نيراس.

هل أنت «خائف؟ يا لها من جملة! سخرية يبدو أن بعض الناس ال يتطورون مهما تقدم بهم العمر. وبعد نقاش قصير، وجدت نفسي أركض معه في أحد الأزقة بعد أن طرق أأنا الباب وهربنا وسط ضحكات مكتومة. لم تكن مغامرة عظيمة، ولم ننفذ مملكة أو نهزم جيشا، لكنني لم أتذكر آخر مرة ضحكت فيها بهذا القدر دون أن أفكر في الماضي أو المستقبل. وحين عدت إلى المنزل مساء، كنت متعبا من المشي، وشعري مبعثرا، وابتسامتي ال تفارق وجهي. سألتني أمي عن يومي، فأخبرتها أننا تجولنا في المدينة العتيقة وتناولنا الطعام. لم أذكر لها بقية التفاصيل، بالطبع؛ فهناك أسرار ينبغي أن تبقى بين الأصدقاء، خصوصا عندما تكون تلك الأسرار سببا محتمال في تويخك. استلقيت على سرير في تلك الليلة، أفكر في يومي، ثم ابتسمت. لقد عشت حياة كاملة من قبل، وعرفت الفقر والحرب والندم، لكنني بدأت أكتشف أن الحياة ال تُقاس فقط بالأحداث العظيمة التي تغير مصير العالم؛ أحيانا تُقاس بكعكة عيد ميلاد، أو جولة بين الأزقة القديمة، أو بضحكة صديق أحمق يقنعك بارتكاب حماقة صغيرة. ومع ذلك، كان لدي شعور بأن أشين لن يكتفي بتلك الحماقة الصغيرة، وأن الأيام القادمة ستحمل لنا مشاكل أكبر بكثير.

الفصل الخامس عشر: مغامراتي مع عائلي

لم أكن أظن أنني سأواجه في حياتي الثانية عدوا أعجز عن هزيمته بالسيف أو العقل، عدوا ال يرتدي درعا، وال يحمل سالحا، وال يحتاج إلى جيش ليجعلني أشعر بالعجز التام. كنت أظن أنني، بعد كل ما عشته في حياتي السابقة، قادر على مواجهة أي شيء. لكنني اكتشفت أنني كنت مخطئا حين بدأت المرحلة الإعدادية، وتحديدًا عندما فتحت كتاب الرياضيات لأول مرة ووجدت الحروف الإنجليزية تتسلل بين الأرقام وكأنها قررت احتلال مملكتي الخاصة. حدثت في الصفحة طويال، ثم قلبتها، لعلي أجد تفسيرًا في الصفحة التالية، لكن الوضع ازداد سوءًا. أرقام، وحروف، ورموز، ومعادلات تبدو وكأنها رسالة مشفرة أرسلها عدو مجهول إلعالن الحرب على عقلي. أعدت قراءة السؤال مرة، ثم مرتين، ثم وضعت القلم على الطاولة ونظرت إلى السقف. *انتظر لحظة.. لماذا توجد حروف في الرياضيات؟ ألم يكن لدينا ما يكفي من الحروف في اللغة؟ هل قرر أحدهم أن الأرقام تشعر بالوحدة، فأرسل إليها الحروف *لتؤنسها؟ في حياتي الأولى، كنت أتعامل مع مسائل الاستراتيجية العسكرية التي تتطلب حساب المسافات وتقدير أعداد الجنود والموارد. كنت أستطيع تحليل تحركات جيش كامل، والتنبؤ بالخيارات التي قد يتخذها قائده، لكنني الآن عاجز عن فهم سبب إصرار حرف $(\backslash x)$ على الختباء داخل معادلة.

والأسوأ أن المدرس كان يتحدث عن هذا الأمر وكأنه أبسط شيء في العالم قال ذات مرة: «نعوّض قيمة المجهول في المعادلة، ثم نستخرج.» الناتج! *المجهول؟ كنت أظن أنني جئت إلى المدرسة ألتعلم، ال ألحقق في قضية اختفاء حرف!*

كان أشين يجلس بجانبني، وقد لاحظ أنني أهدق في الكتاب بمالمح رجل اكتشف خيانة أقرب حلفائه. مال نحوي: وهمس «هل فهمت» الدرس؟ التفت إليه ببطء وقلت «أشين، لقد واجهت في حياتي أشياء كثيرة، لكنني لم أتوقع أن يأتي اليوم

الذي أضطر فيه إلى استجواب حرف». أبجدي كتم ضحكته بصعوبة، ثم أشار إلى السؤال: «الأمر سهل، انظر، عليك فقط أن تنقل هذا إلى الطرف...» الآخر توقفت عن السماع بعد جملته الأولى. *ينقل ماذا؟ وإلى أين؟ هل نحن في درس رياضيات أم عملية *تهريب؟ ومع ذلك، لم أستطع إنكار أن هذا العالم يملك قدرة عجيبة على مفاجأتي. كنت أتعلم أشياء لم تخطر ببالي في حياتي الأولى، واكتشف أن ما كنت أعدّه مستحيال ليس إلّا أمراً عادياً هنا. ولعل المشكلة لم تكن في الرياضيات نفسها، بل في غروري القديم الذي جعلني أظن أنني، ألني امتلكت عقلاً قادراً على التخطيط للحروب، سأتمكن من فهم كل شيء بسهولة. الحياة الـ تهتم بما كنت عليه؛ إنها تضع أمامك تحدياً جديداً، ثم تنتظر منك أن تتعلم كيف تواجهه. ومع ذلك، أصر على أن من أدخل الحروف إلى الرياضيات يستحق جلسة تحقيق رسمية.

**في المنزل، كانت هناك معركة أخرى تُحضر دون **. علمي دخلت المطبخ بعد عودتي من المدرسة، وأنا أفكر في الواجبات التي تنتظرني، فرأيت أبي، فيكتور، واقفاً أمام الخزانة ممسكاً بكأس زجاجي مكسور. كانت مالمحه جامدة، لكنه كان ينظر إلى الكأس كما ينظر رجل إلى دليل إدانة الـ يستطيع إخفاءه. اقتربت منه، ثم نظرت إلى الكأس، وبعدها إلى وجهه. «أبي.. ماذا فعلت؟ التفت إليّ ببطء وهمس «لقد انزلت من» يدي حدقت في الكأس مرة أخرى، ثم أدركت الكارثة الحقيقية. لم يكن كأساً عادياً؛ كان **كأس أمي **المفضل. في تلك اللحظة، لم أعد أرى أبي كما اعتدت رؤيته، بل رأيت رجال يقف على خط المواجهة الأخير، محاصراً بجيش الـ يرحم، وال يملك سوى الأمل في النجاة. تناولت طنجرة من الرف ووضعتها فوق رأسي نكودة، ثم وقفت إلى جانبه وقلت بجديّة: عسكرية «رسمياً، أنا في الخطوط الأمامية بعد أن كسر أبي الكأس المفضل ألي. إن لم أعد، فأخبروا أشين أنني مت وأنا أدافع عن رجل». أحرق نظريّ أبي بقلق: «وقال «إياك أن»! تخبرها أجبته وأنا أعدل الطنجرة فوق رأسي «ال تعلق، أبي. سأحافظ على

سرنا حتى آخر». نفس لم تمض سوى لحظات حتى سمعنا خطوات أمي تقترب من المطبخ. تجمدنا في مكاننا، وكأن الزمن توقف احتراماً لحجم المصيبة. دخلت سالفياً، ونظرت إلى الكأس المكسور، ثم رفعت عينيها إلينا. «ما الذي حدث هنا بحق؟! السماء؟»

كنت ال أزال أرتدي الطنجرة فوق رأسي، فرفعت يدي: «أرجوك، ال تأخذي هذه المعلومات!» أبداً ساد الصمت لثوان. حدثت أمي في، ثم في الطنجرة، ثم في أبي الذي كان يحاول إخفاء يديه خلف ظهره. تنهدت: «حسناً، توقفي عن الصراخ، سأخبرك بكل شيء رد أبي: بسرعة «لكنها لم»! تصرخ التفتت أمي إليه وقالت بهدوء: «مخيف» (فيكتور، أنا أراك تحت). الطاولة انخفض رأسي تلقائياً، فاكتشفت أن أبي اختفى بالفعل خلف الطاولة. جاء صوته: «مكتوما» (فيكتور غير متوفر). حالياً عقدت أمي ذراعيها: «أخرج أيها»! الأبله: فأجابها «ال أستطيع، أنا»! عالق لم أتمالك نفسي، فانفجرت ضاحكاً، لكن ضحكتي انقطعت عندما التفتت أمي نحوي: «وسألت «إذن، من كسر» الكأس؟ نظرت إلى أبي، ثم إلى أمي، وشدت قبضتي حول حافة الطنجرة. «لقد وعدت أبي أنني لن أشي»! به رفع أبي رأسه من تحت الطاولة وقال: «بفخر» هذا»! ابني نظرت إليه أمي، فعاد إلى الختباء فوراً.

نهض أبي أخيراً، ونفض مالبسه، ثم قال بنبرة رسمية: «أعتذر، يجب أن أحضر شيئاً من» المطبخ رمشت عدة مرات وأنا أصدق فيه. «أبي.. نحن في» المطبخ توقف عند الباب، ونظر حوله، ثم ابتسم ابتسامة مرتبكة. «كنت أقصد.. المطبخ» الآخر وما إن وصل إلى الباب حتى انطلق هارباً كأن حياته تعتمد على سرعته. لم تتحرك أمي للحاق به؛ اكتفت بالتنهد، ثم خرجت من المطبخ بخطوات هادئة. وبعد لحظات، سمعنا صوتها أمام إحدى الغرف: «فيكتور، أستطيع رؤية» قدميك جاء صوته من: الداخل «فيكتور غير»! متوفر أغمضت عيني وأنا أضحك حتى شعرت بألم في بطني. كان أبي رجال عاقل، محترماً، قادراً على التعامل مع القضايا المعقدة،

لكنه تحول أمام كأس مكسور إلى طفل يحاول الختباء من أمه. أما أنا، فقد اكتشفت أن ارتداء الطنجرة ال يمنحك الحماية من العواقب، بل يجعلك تبدو أكثر تورطا.

في تلك الليلة، جلست في غرفتي أتذكر ما حدث، ثم وجدت نفسي أقارن بين حياتي الأولى وهذه الحياة. كنت في الماضي أرى الخوف في عيون الجنود، وأسمع صرخات الرجال في ساحات المعارك، وأعود إلى غرفتي حامل ذكريات ال أستطيع مشاركتها مع أحد. أما الآن، فأنا أضحك على أبي لأنه كسر كأسا، وأسمع أمي توبخه، وأشعر بأني جزء من فوضى عائلية صغيرة ال تؤذي أحدا. لم تكن حياتي الحالية مثالية، ولم تكن خالية من المشكلات، لكنني بدأت أوئن بأني لم أ منح هذه الفرصة الثانية الاستعيد ما فقدته فحسب؛ ربما منحت لي ألكشف ما لم أعرفه قط. في حياتي الأولى، كنت أظن أن قدري هو أن أصبح فارسا، وأن أحمي الآخرين حتى لو كان الثمن حياتي. وقد فعلت ذلك، لكنني رحلت دون أن أعرف كيف يكون للمرء بيت يعود إليه، وأب يرتكب حماقة ثم ينجبني، وأم تغضب لأنها تحب الأشياء التي تجمع ذكرياتها. ربما لم يكن قدري في هذه الحياة أن أكون بطل عظيم، وربما لم أكن بحاجة إلى لقب أو سيف ألتب أن لحياتي معنى. **ربما كانت هذه هي الحياة التي احتجت إليها منذ البداية؛ حياة ال أضطر فيها إلى الموت كي أكون جديرا بالحب، وال إلى التضحية بكل شيء كي أشعر بأني أنتمي إلى مكان ما. *ابتسمت وأنا أسمع أبي يهمس ألي من خلف الباب: «هل انتهى» الأمر؟ فأجابته «سنتحدث عن الكأس». غدا ثم سمعت خطواته تبتعد بسرعة. تنهدت وغطيت وجهي بالوسادة. يبدو أن أأامي الكثير أتعلمه في هذه الحياة، بدءا من الجبر، وانتهاء بكيفية النجاة من غضب أمي

إلى كل من منح روايتي جزءا من وقته، وقرأ سطورها، وعاش معي أ، حدثها شكرا من القلب على دعمكم واهتمامكم. ♥📖 وصولكم إلى نهاية هذا الجزء يعني لي الكثير، وآمل أن تكونوا قد استمتعت بالرحلة، وأن تبقوا مستعدين لما تجبئه الأحداث

القادمة، فالحكاية لم تنته بعد! أود أيضاً أن أدعوكم إلى اكتشاف أعمال أخرى تستحق القراءة، ومنها رواية «حياتي بين العوالم» والأبعاد للكاتب منتصف الوسلاتي، ورواية «أصدقاء غير» شرعيين للكاتبة ميارى التونسي. ❖ وأخيراً، تذكروا أن ما قرأتموه هو الجزء الأول فقط، أما الجزء الثاني فسيكون بين أيديكم بعد أسبوعين من الآن، بإذن هللا. فاستعدّوا لمواصلة الرحلة، ألن القادم يحمل المزيد من الأحداث والمفاجآت! شكراً لكل قارئ، ولكل كلمة دعم، ولكل شخص آمن بالحكاية ومنحها فرصة. أنتم جزء من هذه الرحلة، وأتمنى أن أراكم معي في الجزء القادم. ♥ إلى اللقاء بعد ..أسبوعين. فالحكاية لم تنته بعد! 📖